خوجة زينب

حِين عُدتُ إليّ

الطبعة الأولى 1446 هـ - 2025 م
(ISBN) : 978-9969-592-84- 9
الإيداع القانوني: 2025/06

اسم العمـــل: حِين عُدتُ إليّ
تأليف: خوجة زينب
عدد الصفحات: 115 صفحة
الصنف: رواية
قياس: 14 /21

الناشر/ دار المثقف العربي للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: https://elmothakaf.github.io/Website/index.html
هاتف / فاكس 0675 49 73 86
واتساب/0696 59 04 68
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للمؤلف وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من المؤلف و يستفيد المؤلف من كل الجوائز الممنوحة له من النشر الالكتروني أو الورقي كما أنه هو المسؤول عن حقوقه الفكرية و مقاضاة الأشخاص أو الهيئات التي تقوم بنسخ أو استعمال مؤلفه دون إذنه

للتواصل معنا انسخ رمز الاستجابة السريعة

خوجة زينب

حِين عُدتُ إليّ

رواية

المثقف العربي
للنشر والتوزيع

الإهـداء

إلى تلك التي في المرآة...
إلى من سقطت ألف مرة، ووقفت في كل مرة أقوى مما كانت عليه،
إلى قلبي الذي صدّق، وتأذّى، ثم تعافى.

إلى نفسي التي لطالما تجاهلتها...
فأهديها اليوم هذا الكتاب، عربون حب واعتذار وامتنان، لأنَّها كانت
الرَّفيقة في الضُّعف، والبطلة في الصَّبر، والنَّاجية من كلّ ما كان.

إلى زوجي، سند روحي...
شكرًا لأنَّك كُنت النُّور حين أطفأ التَّعب كلّ شيء...
شكرًا لصبرك، لاحتوائك، ولإيمانك بي.

إلى أولادي، أبطالي الصِّغار...
أنتم الدَّافع، أنتم الحلم، أنتم الحياة التي أُزهر بها من جديد...

إلى عائلتي، جذوري وامتدادي...
كلّ نجاح لي يحمل منكم شيئًا.

وإلى كلِّ امرأةٍ ظنَّت أنَّها وصلت النِّهاية...
تذكَّري دائمًا أنَّ ما بعد الانهيار بداية.

المقدِّمـــة

«في لحظةٍ من الصَّمت العميق، أدركت أنَّني لستُ أنا، بل انعكاسي في أعين الآخرين. كانت حياتي سلسلة من الأدوار التي أدَّيتها ببراعة، أحيانًا بشكل تلقائي، وأحيانًا أخرى على سبيل الهروب من الفراغ الذي يسكنني. منذ سنوات، كنتُ أركض في سباقٍ مستمر مع الزَّمن، دون أن أتوقَّف لحظة لأسأل: من أنا حقًّا؟ أكنتُ الشَّخص الذي اعتقدتُ أنَّني سأكونه، أم أنَّني كنتُ فقط أتقمَّصُ دورًا أملته عليَّ الظُّروف، التَّوقُّعات، والآخرين؟»

والآن، وأنا جالس في هذه الغرفة، حيث لا أحد يراقبني ولا أحد ينتظر مني شيئًا، بدأت أرى بوضوح ما كنتُ أهرب منه. كل تلك العلاقات، كل تلك الوجوه التي مرّت في حياتي، كانت بمثابة مرآة أراها كلما كنت بحاجة لمعرفة شيء عن نفسي. لكن ماذا لو أنني كنتُ طوال هذه الفترة، أبحث عن شخص لا وجود له سوى في خيالي؟»

«منذ وقت طويل، توقفت عن سؤال نفسي: ما الذي أريده حقًّا؟ فأنا لا أستطيع تمييز أي رغبة تخصني من بين آلاف الأصوات التي تحيط بي. ولكن الآن، لا أملك سوى هذا السؤال: هل بإمكاني حقًّا أن أكون نفسي، أم أنني مجرد نسخة مشوهة من توقعات الآخرين؟»

«رُبَّما لهذا السَّبب، شعرت دائمًا أنني غريب حتى في أكثر اللحظات التي يفترض أن تكون مألوفة. كنتُ أضحك، أتحدث، أتفاعل، لكن في داخلي كان هناك صمت كثيف، كغيمة لا تمطر، ولا تنقشع. كل قرار اتخذته، وكل طريق سلكته، كان يحمل بصمة أحدهم، لا بصمتي. وكأنني كنت أعيش حياتي على الهامش، أراقب دون أن أشارك «ولكن ثمة شيء ما تغيّر لا أدري إن كان بفعل الوحدة، أم لأنني تعبت أخيرًا من ارتداء الأقنعة. ثمة رغبة ملحّة تنمو داخلي، رغبة في أن أبدأ من جديد، أن أخلع كل ما تراكم فوق روحي من طبقات زائفة، وأن أواجه حقيقتي، مهما كانت هشة، مبعثرة، أو حتى مخيفة.»

وهكذا بدأت الرحلة... لا نحو مدينة جديدة، ولا عمل جديد، بل نحو الداخل، نحو الذات التي تجاهلتها طويلًا. لم أعد أبحث عن إجابات سريعة، ولا عن خلاص مؤقت. فقط أريد أن أتعلم كيف أكون... أنا.»

«لطالما قيل لي إن التغيير يبدأ بخطوة. لكن ما لم يخبرني به أحد، هو أن تلك الخطوة الأولى غالبًا ما تكون الأكثر وجعًا. هي لحظة مواجهة، لا مع العالم، بل مع الذات التي تآكلت بصمت تحت وطأة المقارنات، الخوف، والخذلان.

جلستُ على الأرض، لا كرسي فاخر، ولا جلسة تأمل متقنة. فقط أنا، وأرض الغرفة الباردة، وسؤالٌ واحد يضرب رأسي بإلحاح: ماذا لو كنت أستحق أكثر مما أظن؟

في تلك اللحظة، لم أعد أرغب في أن أكون كما يريدون، بل كما أريد. لم أعد أخشى الفشل، لأنني أدركت أن أكبر فشل هو أن أعيش حياة لا تُشبهني. بدأت أبحث... لا عن كمالٍ مزيف، بل عن ذاتي الحقيقية. تلك التي تحمل ندوبها بفخر، وتنهض رغم الخذلان، وتتعلم، وتكبر، وتختار.

هذه ليست قصة نجاح فوري، ولا تحول سحري. إنها رواية عن بناء النفس من جديد، عن الوقوف بعد الانهيار، عن أن تقول أخيرًا: «أنا أستحق. أنا أقدر. وأنا قادم، لأكون أنا بكل ما فيّ من قوة وصدق.»

من هنا تبدأ الحكاية...

{الفصل الأوَّل}

قمر

قمر... امرأةٌ في الثَّلاثينيّات، لم تكن امرأةً لافتةً كجَمالِ المجلَّات، بل كان قلبُها لافتًا كطُمأنينةِ الدُّعاء...

ملامحُها ناعمةٌ، ببشرةٍ قَمحيّةٍ تُشبه دفءَ الأرض، وعينينِ واسعتينِ بلونِ البُندق، فيهما عُمقٌ لا يُشبه الحزن، بل يُشبه مَن نجا منه.

حاجباها مرسومانِ بطبيعةٍ توحي بالرِّضا، شَفَتاها هادئةٌ لا تميلُ إلى الضَّحك.. لكنّها حين تبتسم، يشعر من حولها وكأنّ الوقتَ توقَّف لحظةً ليرى الجَمال.

تزوّجت من حبِّ حياتها «عُمر» بعد قصّةِ حبٍّ عفيفة، رزقها الله بطفلين، بَذرةِ حُبِّهما، ترى حياتها مثاليّةً، قنوعةً راضية.

بعد مرورِ أربعِ سنواتٍ من زواجِها الحافلِ بالذّكرياتِ الجميلة، ها هي قمر ترتدي حِجابًا بسيطًا بلونٍ تُرابيٍّ دافئ، تلفُّه بإتقانٍ لا مبالغةَ فيه، تذهب مع زوجها لمعرفةِ نتائجِ التَّحليلِ التي أجرَته بعد مرضِها في ولادتِها بطفلِها الثّاني.. لم تكن قمر تتخيّل أنَّ الحياة قد تتغيّر في لحظةٍ واحدة، كان الطريقُ إلى عيادةِ الطَّبيب طويلًا ومليئًا بالمُنعطفات، لكنّ الوقت بدا وكأنَّه يتسارع كلّما اقتربا من المكان.

كانت قمر تجلس بجانبِ عُمر في السيّارة... قلبُها ينبض بسرعةٍ، بينما كانت تُحاول أن تُخفي القلقَ الذي يعصف بها.

هل ستكون النَّتائج جيِّدة يا ترى؟

هذا السُّؤال كانَ يدورُ في ذهنِها طوالَ الطَّريقِ، ومعَ كلِّ لفتةٍ من الطَّريقِ كانَ القلقُ يتسارعُ ويكبرُ في صدرِها.

عُمر، الذي جلسَ إلى جانبِها صامتًا، كانَ يشعرُ بنفسِ القلق، لكنَّهُ لم يكن قادرًا على التَّعبيرِ عنهُ بشكلٍ كاملٍ.

كانت عيناهُ تُراقبانِ الطَّريقَ أمامَهُ، لكنَّ عقلَهُ كانَ بعيدًا في مكانٍ آخر... معَ قمر، ومعَ ما قدْ تُخبرُهُ نتائجُ الفحوصاتِ القادمةِ.

وضعَ يدَهُ على يدِها التي كانت فوقَ فخذيها، وقالَ بصوتٍ هادئٍ:

ـ أيًّا كانتِ النَّتيجةُ، نحنُ معًا، نرضى بها ونتجاوزُها، أليسَ كذلك؟

نظرت إليهِ وأخذت نفسًا عميقًا، كانت تعلمُ أنَّهُ يُحاولُ أن يكونَ قويًّا من أجلِها... عندها ابتسمت له وأومأت برأسِها.

عندما وصلا إلى العيادةِ، نزلَ كلاهما بهدوءٍ، كانَ كلُّ شيءٍ حولَ قمر هادئًا، إلّا قلبها كان يهتفُ في صدرها.

دخلا إلى غرفة الطَّبيب، نظرَ إليها عمر، وأرْبَتَ على كتفها، ورسم على وجهه ابتسامةَ ثقةٍ.

وبعدَ لحظاتٍ من الصَّمتِ في غرفةِ الطَّبيب، دخلَ الأخير وقال:

ـ سرطان غدّةٍ دَرَقيّة، الأمر ليس خطيرًا، لكن علينا إجراء العمليَّة على الفور.

شعرت قمر وكأنَّ الزَّمن توقّف لحظةً، كانت عيناها تَّسعانِ، بينما كانت تُحاول أن تستوعب الكلمات التي نطقَ بها الطَّبيب.

عمر... الذي كانَ يُراقب وجهَ قمر بخوفٍ شديدٍ، شعرَ وكأنَّ الهواء خرج من صدرِه، وكأنَّ الأرض ارتجّت تحت قدميه، ولكن، رغمَ ذلك، كانَ عليهِ أن يكون قويًّا، لأنَّ قمرا تحتاجه أكثر من أيِّ وقت مضى.

نظر إليها، وجدها ثابتةً، لا تبكي، بل كانتْ تُقاوِمُ العيون الدَّامعة...

قالَ بصوتٍ خافتٍ:

ـ إذن، لا خُطورةَ في العمليَّة، ونسبة الشِّفاء عالية... سنواجهُ هذا كما وعدنا أنفسَنا.

ابتسمت له قمر، لكنَّها ابتسامة تحمل الكثير من الألم، كانت تُحاول أن تظلَّ قويَّةً، رغمَ أنَّ قلبها كان يَخشى تلك المجهولات القادمة.

خرجت قمر من غرفة الطَّبيب كما لو أنَّها في حُلمٍ، عقلها مُشوَّش بكلمات الطَّبيب، وعقلها الآخر يُعيدُ تكرار كلمة «سرطان» التي سمعتْها...

قطع عمرٌ تفكيرَها حينَ أمسكَ يدَها برفقٍ، واعتصرَها في صمتٍ، وكأنَّ كلماته كانت ستخون شُعوره...

عادت إلى البيت في ذلك اليوم، فوضويّةً من الدَّاخل رُغم هُدوئها الظَّاهر.

طفلاها كانا يلعبان على الأرض، لم يُدرِكا أنَّ شيئًا تغيّر.

وقفت تنظر إليهما وتساءلتْ: «كيفَ سأتركُهما؟ ماذا لو لم أعُدْ؟»

في تلكَ اللَّيلةِ، لم تبكِ، لم تكنِ الدُّموعُ مناسبةً لمثلِ هذا الحدث.
أرادت أن تكون قويَّة. جلستْ أمامَ المرآةِ تتفقّدُ رقبتَها، لكنَّها في لحظةٍ ما قرّرتْ أن تكلِّمَ نفسِها كما لم تفعلْ من قبل:
«أنا قمر، وهذا المرضُ لن يكونَ نهايتي، بل بدايتي...»
ومن تلكَ اللَّيلةِ بدأتْ رحلتَها للعلاجِ، لا فقط لمحاربة السَّرطان، بل لاكتشافِ قوّتِها...
قرّرتْ أن تتعلّم، أن تفهم جسدها، أن تُحبَّ نفسها، لا على الرُّغم من المرض، بل بسببه.
فكلّ حكاية عظيمة، تبدأُ من لحظةِ ألم.

{الفصل الثّاني}

نور

نور... شخصيَّة نادرة، تنتمي إلى فئة القلوب التي تشعّ دفئًا، تعطي الكثير دون أن تطلب شيئًا في المقابل.

رسّامة بالفطرة، ترى الجمال في تفاصيل الحياة التي يغفل عنها الجميع... كان عالمها ألوانًا، وريشة، ولوحات تختبئ فيها حين تضيق الدُّنيا عليها.

نور شخصيَّة هادئة، محبة، قلبها يتّسع للجميع، حتَّى من لا يستحق، تحب العزلة أحيانًا، لكنَّها لا تتأخَّر أبدًا عمّن يحتاجها.

تؤمن أنَّ الفنّ يمكنه مداواة الألم، وكانت تهدي لوحاتها لمن تحب كتعبير عن مشاعرها العميقة.

لدى نور وجه دائري ناعم، وبشرة بيضاء تعكس براءة قلبها، وعينان واسعتان بلون العسل، دومًا تلمعان ببريق من الأحلام.

شعرها بنيّ طويل، غالبًا ما تربطه إلى الخلف حتَّى لا يتداخل مع ريشة الرَّسم التي لا تكفّ عن إمساكها.

ترتدي دائمًا ملابس فضفاضة مريحة، عليها بقع ألوان مُتفرِّقة، كأنَّها لوحة مرسومة...

آلاء... صديقة نور، كانتا كالتَّوأم، تقاسمتا الحياة منذ الطُّفولة، وكبرتا معًا بين دفاتر الرَّسم ودفاتر الأسرار.

حتى الحلم كان مشتركًا: «مرسم لتعليم الأطفال الرسم.»

كانت الفكرة حلمًا تحمله نور بقلبها، وتغذّيه بحبها للأطفال والفن.

أمَّا آلاء فكانت تميل إلى الإدارة، تحب الأرقام الكبيرة والتَّنظيم...

كانت البداية في مقهى صغير، جلست فيه نور وآلاء بعد يومٍ طويلٍ في الجامعة، تائهتين بين القلق من المستقبل والحماس للحياة.

كانت نور تمسك قلمًا وترسم في المنديلِ الورقيّ الذي كان فوق طاولة المقهى... رسمت دائرةً صغيرةً، ثُمَّ وضعت في منتصفِها نقطةً، وقالت لآلاءَ وعيناها تلمعان بشغفِ الطُّفولة:

- أتدرين ما هذه؟ هذه رؤيتي، نقطة البداية لمكانٍ نحلم به، فيه نبني للأطفالِ عالمًا من الألوان، نبعدهم فيه عن ضجيجِ الحياةِ وقسوتِها.

ابتسمت آلاءُ وقالت بسخريةٍ عفويّة:

- نعم، الأحلام التي نرسمها فقط على المناديلِ الورقيّة، أليس كذلك؟

ضحكت نور على كلامِها، لكنَّها كانت جادّةً للغاية، كانت عازمة على تحقيقِ حلمِها، رغم أنَّه لم يكن بين يديها سوى حبِّها للفنِّ، وثقةٍ لا تهتزُّ بنفسِها.

قضت نور ليالي ترسم بلا توقّف، تبيع لوحاتها التي رسمتها حين كانت في أوجِّ هشاشتِها، تلك اللَّوحاتُ التي كانت تقول عنها:

- هي جزء من روحي، ولكنّ الرّوح يمكنها أن تتنازل من أجل النُّور.

أمَّا آلاء، فقد كانت العمود الذي تستند عليه نور حين يتكالب الواقع.

تولّت الإجراءات ومهمّة بيع اللَّوحات بسعرٍ بسيط، وحتَّى المفاوضات القاسية مع أصحاب المحلّات...

وفي فرصة ما، وجدت مكانًا صغيرًا في حيٍّ قديمٍ خالٍ من الحياة، اصطحبت نور إليه قائلةً:

- هنا سنصنعُ الحياةَ بأيدينا.

رحَّبت نور بالفكرة بصدر رحب و هي متحمّسة لتحقيق حلمها أخيرًا...

عملتا معًا لأيّامٍ طويلةٍ حتى تمكَّنَا من كِراءِ المكان، ثُمَّ بدأتا في إعادةِ تهيئتِه...

كانت نُور ترسم الزُّهور على الجدرانِ المتقشّرةِ، وتصبغ النَّوافذ بلونِ السَّماءِ، وألاء اقترضت بعضَ المال من جدَّتِها، واشترت الفرش والكراسي وطاولات الرَّسم للأطفال، وبدأت تُرتّبُ الجداول وتُعدُّ المنشورات...

البدايات كانت متواضعةً، ثلاثةُ أطفالٍ فقط، حضروا الورشةَ الأولى، لكن نُور لم تُصبْ بخيبةٍ، بل جلستْ ترسمُ وتضحكُ معهم كأنَّهم جيشٌ من الفنَّانينَ الصِّغار، نظرت إلى ألاء التي كانتْ متشائمةً وقالت:

- لا عليكِ، القلبُ لا يحتاجُ إلى عددٍ، يكفي أن ينبض.

شيئًا فشيئًا بدأ الحُلُمُ يتوسَّعُ، كَبُرَ عددُ الأطفالِ، وكَبُرَ المرسمُ، لا بسرعةٍ مفاجئةٍ، بل بنموٍّ هادئٍ يُشبهُ تفتُّحَ الأزهارِ في كلِّ صباحٍ.

كان كلّ صباحٍ جديدٍ بمثابة لوحةٍ لم تكتمل، تمسك نور بريشتِها وتترك الحياة تملأ الألوان. أصبحتِ الجدران تُغنّي بالرَّسم، كلُّ زاويةٍ من المرسم تحكي حكايةً، زاويةٌ للأطفالِ ذوي الاحتياجات الخاصَّة، حيث كانت نور تجلس على الأرضِ تبتكر طُرقًا تجعل الفنَّ لغة يتقنُها من لا يُجيدُ الكلام.

رُفوف مليئة بعلب الألوان، بفُرَشٍ متنوّعةٍ، وبِقصصٍ مرسومةٍ على وجوه الصِّغار. كان في كلِّ ركنٍ روح، وفي مدخل المرسم لائحة خشبيَّة كُتِبَ عليها بخطٍّ نور:

- هُنا لا نُعلِّم الرَّسم فقط، نُعلِّمُ كيف نُحبُّ أنفسنا أيضًا.

الأمَّهاتُ بَدأنَ يأتينَ دون دعوةٍ، يَحملنَ أطفالَهُنَّ بلهفة، بعضُهم خجول، وبعضُهم مُنطفئٌ، لكنَّهُم كانوا يخرجونَ من المرسمِ بأصابعَ مُلطَّخةٍ بالألوانِ تَمنعُ خجلَهم، وقلوبٍ مُشرقةٍ تَمنعُ انطفاءَهم.

أصبح الأطفال يُهدونَ نورَ رسوماتِهم الصَّغيرةَ، يَرسُمونَها بكُلِّ عفويَّةٍ. كانت كلُّ ورقةٍ تَصِلُ يدَها تُعلِّقُها على جدارٍ خاصٍّ أسمتهُ:

«جدارُ الأحلامِ الصَّغيرةِ».

أمّا ألاء، ففي دَورها الإداريِّ، كانت تُمسكُ بِزِمام الأمور بكُلِّ ثقةٍ، تَنتقلُ بينَ الاتّصالات، إعداد الخطط، التَّعامُل مع الجهات الدَّاعمة. كانت تَبدو صارمةً، تتحدَّثُ بلُغة الأعمال، بينما نور تتحدَّث بلُغة القلوبِ.

ورغمَ اختلافِ الطَّريقتين، كان التَّوازنُ مثاليًّا؛ نور الجذرِ العاطفيِّ، وألاء العقل المنظَّم، تحت شِعارهما الدَّائم:

- الحُلم لا يَعيش بالقلب وحدَهُ، ولا بالعقلِ وحدَهُ، بل بِهِما معًا.

جاء يوم أُعلِنَت فيه الجائزة السَّنويَّة لمشاريع الفنّ الاجتماعي، وتَرشَّح المرسَم ضمن قائمةٍ قصيرة، ورغمَ بساطتِه حاز إعجاب لجنة التَّحكيم، ليس فقط ما يُقدِّمُه من فنٍّ، بل لأنَّه أصبح ملجأً نفسيًّا للأطفال.

عندما استلمتا الجائزة، كانت نور تلبسُ فُستانًا بسيطًا، تَقِف أمام الكاميراتِ بارْتباكٍ طُفوليٍّ، بينما آلاءُ ارتدت طقمًا أنيقًا ووجهُها يبدو عليه الحَزمُ والصَّرامة.

وهنا، بدأ المالُ يطرقُ الباب، وبعد هذا النَّجاح بدأت الجهاتُ الدَّاعمةُ تُبدي اهتمامَها، تَلَقَّى المرسَمُ عروضًا بشراكات، دعمًا ماليًّا، توسيعَ الفروع، وأصبح المرسَمُ أكثرَ من مجرَّد فكرة، صار مشروعًا له وزنٌ، وله تأثير.

بعد مرور شهرين من توهجُّ المرسَم، كانت نور تُلاحظ التَّغيُّر، كانت نور تُلاحظ تغيُّرًا في آلاء، تغيُّرًا لم يكن صاخبًا، بل هادئًا كنَسمةٍ باردةٍ تمرُّ على كتفِك ولا تراها، آلاء لم تَعُد تجلس معها بعد انتهاء الدَّوام كما كانت تفعل دائمًا، لم تَعُد تشرب قهوةً معها في المطبخِ الصغيرِ بينما تُراجعان رسوماتِ الأطفالِ ويضحكن من العباراتِ العفويَّةِ التي يكتبونها أسفلَ رسوماتِهم.

الغيابُ بدأ صغيرًا، ثم كَبُر، في البداية اعتقدت نور أنَّ الأمر طبيعيٌّ.. كلتاهُما مُتعبتان، المشاكلُ كثيرة، والمسؤوليَّاتُ تُثقِلُ الكتفين، لكنَّ شيئًا في أعماقِها يَهمس:

- هل هذه هي آلاءُ التي أعرفُها؟

كانت الاجتماعاتُ تُعقَدُ بدون علمِها، قراراتٌ تُتَّخَذُ دون استشارتِها، مستنداتٌ تمرُّ بسرعةٍ أمامها بتبريراتٍ مُختصَرة...

كانت نور تقفُ يومَها على جدارِ الأحلامِ الصغيرة، تُقَلّبُ رسوماتِ الأطفالِ المُعلَّقة عليه، نتفقدُها كما لو كانت تبحثُ عن شيءٍ ضائعٍ بينها، لكنَّها لم تكن تبحثُ في الحقيقةِ إلَّا عن ذاتِها، شيءٌ ما انكَسر، لم تَعُد تشعرُ بذلك الدفءِ الذي كان يملأ المكان، كلُّ شيءٍ أُصلحَ مُرتَّبًا أكثر من اللَّازم، صامتًا أكثر من المعتاد، وكأنَّ الروحَ انسحبت من الجدران.

ألاء تَغيَّرَت، صارت تتحدَّث بلغةٍ جديدة، بلغةِ المشاريعِ والمستثمرين، تُكثِرُ من استخدامِ كلماتٍ مثل «عائد»، «ميزانية»، «مخاطر»، ولا تذكُرُ الفنَّ إلَّا عَرضًا، كوسيلةٍ لجذبِ الانتباه، لا كقيمةٍ تُصنَعُ بها الحياة.

لم تَعُد نور تنام، صارت تسهرُ الليالي تقرأ عقودَ الشراكةِ القديمة، والمستنداتِ الجديدة المُخبَّأة عنها.

رأت خسارةً كبيرةً وديونًا مُتراكمة، لكنَّ ما كان يُؤلِمُها أكثر من الخسارة، هو فقدانُ الثِّقة، ثقتها في ألاءَ التي كانت ذاتَ يومٍ أُختَها التي لم تلدها أُمُّها.

«أخشى أنَّني كنتُ أرسُمُ حلمًا بيدٍ، وأضعُ الأُخرى في يدِ من كانت تمسحُ الألوان من لوحتي دون أن أشعر»

قالتها نور وهي مُنكسِرةٌ عاجزة، تبكي قلَّةَ حيلتِها، لكنها قرَّرت أخيرًا مواجهةَ آلاء، وعدمَ السماحِ لها باستغفالِها أكثر من هذا.

{الفصل الثَّالث}

زهراء

زهراء... مُطلَّقة بعد عامٍ واحد فقط من زواجها. لم يكن زواجها جحيمًا ظاهريًّا، لكنه كان موتًا بطيئًا لروحها. عاشت في علاقةٍ كانت تُنهك إنسانيتَها بصمت، فلا يُسمَع صوتها، ولا يُرى تعبُها. زوجها لم يكن عنيفًا بالمعنى التقليدي، لكنه كان باردًا، لا مباليًا، محبطًا، يُتقن التَّقليل منها وكأنَّها لا تُجيد شيئًا.

زهراء، متوسِّطة الطول، ترتدي دائمًا ثيابًا أنيقةً ومرتبة، كأنَّها تُحصّن نفسها بدرعٍ خفيّ من نظرات الآخرين. في عينيها يسكن خوفٌ نبيل، لا تشتكي كثيرًا، لكنها حين تتحدث تُصيب القلب مباشرة. تمتلك حس دعابة ذكيًّا وساخرًا تُخفي به هشاشتها.

اسمها وحده يحمل ظلَّ زهرةٍ برائحةٍ ناعمةٍ وأملٍ بالحياة، لكنها كانت زهرةً بلا شمس. تزوَّجت صغيرة، ككثيرات غيرها، تحمل قلبًا مفعمًا بالحب، وحلمًا بسيطًا؛ أن تكون نصفًا لروحٍ تُنبتها لا تقتلعها. لكن الرَّجل الذي ارتبطت به لم يُرِد شريكة، بل ظِلًّا يُرافقه بصمت، امرأة تُجيد الطَّهو وتهدئة صراخ الأطفال، وتُخفي دموعها بإتقان.

«كنتُ أبتلع الكلمات حتى لا أبدو نكديَّة، وأبتسم في الصُّور العائليَّة، وكأنَّني بطلةُ حياةٍ لم أخترها».

البيت الذي عاشت فيه كان صامتًا، لا حُبّ، لا إنصات لِدفء، فقط واجبات يوميّة تتكرّر كأنّها طقوس عبوديّة لا نهاية لها.

وفي كلّ مرّة كانت تُحاول أن تقول شيئًا، أن تُظهر احتياجًا، كان يُقابلها بجملةٍ واحدة:

«ماذا ينقصك؟»

ولم يكن يعلم أنّ أكثر ما يُتعب الإنسان أن ينقصه الشعور بأنّه إنسان.

ليلٌ خفيف، وقلبٌ يُضيء للمرّة الأولى منذ زمن...

كانت زهراء جالسةً في رُكن غرفتها، تُمسك بصورة الأشعّة بيدٍ ترتجف، وعينانِ غارقتان في دَهشة لم تختبرها منذ مدّة.

«أنا حامل...»

همست بالكلمة كأنّها صلاةٌ تُتلى لأوّل مرّة، وكأنّ الكون كلّه توقّف ليسمع نبضها الجديد.

طفل!

أخيرًا، حياةٌ تنبت داخلها، قلبٌ صغيرٌ ينبض في داخل قلبها المُنهك. لم تُصدّق بعد، لكنّها عرفت أنّ هذا الطفل سينقذها من الغرق الصامت الذي طال.

ضمّت يديها إلى صدرها ولم تصرخ، بل أغمضت عينيها في خشوع، وكأنّها تلقّت بشارةً من السَّماء.

هذا الطِّفل لم يكن مجرّد جنين، بل وعدٌ خفيّ، وفرصةٌ لإصلاح ما تكسّر.

أعدَّتْ عشاءً بسيطًا في اليومِ الموالي، أشعلتْ شمعةً صغيرةً على الطَّاولة، ارتدت فُستانًا ورديًّا مُطرَّزًا، خفَّتْ خطواتُها بحذرٍ، فهي تحملُ روحًا داخلها، مُنقِذًا رغمَ صِغرِ حجمِه، لكنَّها كانتْ تطيرُ فرحًا من الدَّاخلِ.

حين عادَ زوجُها استقبلتْهُ بابتسامةٍ خجولةٍ، وقلبٍ يخفقُ، استغربَ من حركاتِها المُفاجئةِ لكنَّه لم يتكلَّم كعادتهِ.

بعد العشاءِ اقتربتْ منه وأمسكتْ يدَه ووضعتها برفقٍ على بطنِها، وقالتْ:

- هُنا تنمو حياةٌ جديدةٌ... طفلُنا الأوَّل!

سكتَ لثوانٍ، غيرَ مستوعبٍ الأمر، نظر إليها بدهشةٍ، ثُمَّ ضمَّها إلى صدرِه بقوَّةٍ، لم تفهمْ إنْ كان يضحكُ أم يبكي، لكنه كان حقيقيًّا، كان دافئًا، كان كما تمنَّته يومًا.

قال بصوتٍ خافتٍ مُمتلِئٍ:

-زهراء... أنتِ لا تعلمين كم هذا الخبرُ مهمٌّ، كنتُ أحتاجُ هذا الأملَ بشدَّةٍ.

وفي تلكَ اللَّحظة صدَّقت زهراءُ أنَّ الحبَّ يمكن أن يُبعثَ من رمادِ الصَّمتِ، وأنَّ الطِّفل سيكون جسرًا يعودان به إلى بعضِهما، إلى ما كانَ بينهما ذاتَ يومٍ.

مرَّت الأسابيعُ كحُلمٍ يسير على الأطراف، كان زوجُها يتغيَّرُ، أصبحَ أكثرَ قربًا منها، يسألُ، يبتسمُ، يضعُ يدَه على بطنِها كلَّ مساءٍ، ويسألُها:

- هل تشعرينَ به؟ هل تحرَّك اليوم؟

وكانتْ تُجيبُه بابتسامةٍ دافئةٍ:

- يُشبهُكَ... هادئٌ لكنَّه حاضرٌ!

زهراءُ كانتْ تبني بيتًا جديدًا من أحلامِها التي تمنَّتها في أحدِ الأيَّامِ، لكنَّ القَدَرَ لا يطرُقُ البابَ حين يُقرِّر أن يعبثَ في المصائرِ.

في يومٍ شتويٍّ، كانتْ تعودُ من زيارةِ الطبيبِ، تحملُ صورةَ الأشعَّةِ بين يديها، ابتسمتْ طوالَ الطريقِ تتخيَّلُ الغرفةَ الصغيرةَ، صبيًّا أم بنتًا، الاسمَ، ولونَ البطَّانيةِ الأولى.

ولكنْ في لحظةٍ واحدةٍ:

«صوتُ فراملَ حادٍّ، صراخٌ... زجاجٌ يتكسَّرُ، ثمَّ سكونٌ مريبٌ...»

صوتُ سيَّارةِ الإسعافِ يدوي في عقلِها، استفاقتْ في المستشفى على ضوءٍ أبيضَ باردٍ يلسعُ عينيها، كانتْ واهنةً، كأنَّها عادتْ من عالمٍ لا اسمَ له.

التفَتَتْ باحثةً عن صوتٍ، عن وجهٍ، عن يدٍ تُمسكُها، لم تجدْ سوى أنفاسِها التي كانتْ تسمعُها من شدَّةِ السكونِ.

قاطعَ الطَّبيبُ بحثَها، دخلَ وهو مرتبكٌ، اقتربَ منها وصوتُه مخنوق بالأسى:

ـ كيف حالُكِ؟

ردَّتْ عليه بصوتٍ متعبٍ:

- أنا بخير... فقط أخبرني، ابني بخير؟

ـ آسف سيِّدتي... النَّزيفُ كان حادًّا، اضطررْنا أن ننقذكِ فقط، لكنَّنا فقدْنا الجنين.

أغمضت عينيها وغاصت في صمتٍ يُشبِهُ الموت البطيء، كأنَّ أحدَهم سحبَ من داخلِها الحياة، وترك جسدَها فارغًا...

بعد مدَّةٍ من الزَّمن، دخل زوجها وجلس عند حافَّة السَّرير، وضع يدَه على يدِها، لكنَّ نظراتِه لم تكن كما توقَّعت، كانت نظرةَ رجلٍ يُلقي اللوم.

قال ببرودٍ لا يُغتفر:

- كنتُ قد حذَّرتُكِ من القيادة... لم تنتبهي! والآن... الآن خسرْتُ طفلِي بسبب إهمالِكِ.

قالت بصوتٍ متدرّجٍ، مخنوقٍ بالبكاء:

- لم يكن خطئي، كنتُ منتبهةً، هذه مشيئةُ الله، كُفَّ عن لَوْمي!

قال بحدة:

- لو كنتِ انتظرتِ حتَّى أنهي أعمالي وأرافقكِ أنا إلى الطَّبيب... لكنَّكِ ككلِّ مرةٍ، تُعانديني فقط.

احمرَّ وجهُه من الغضب، وأردف قائلًا:

- أنتِ...

ثُمَّ سكت، وسكت معه قلبُها.

سكت وخرج مغلقًا البابَ خلفه بقوَّة، تركها وحدها.

لم يمكث ولم يُكمل الجملة... تلك الجملة التي خافتْ منها طوال عمرِها.
تركها في حيرةٍ، أتَبكي جنينَها الذي فقدتْه منذ قليل؟ أم تبكي خذلانَه وتخلِّيه عنها؟
كان في لحظةِ غضبٍ على وشك أن يقطع صلتَه بها نهائيًّا.
بكت كما لم تبكِ من قبل، وهي تنظر إلى النَّافذة من سريرِها، ترى السَّماءَ الممطرةَ وكأنَّها تُواسي عجزَها وقلَّةَ حيلتِها وفقدانَها.
بعد يومين قضتهما في المستشفى، عادت زهراء إلى البيت، لا تسير... بل تُساق.
الطُّرقاتُ بدت أطولَ من المعتاد، والبيتُ نفسُه بدا كقوقعةٍ فارغةٍ، بلا معنى، وبلا روح.
حين فُتح بابُ الشقَّة استقبلها صمتٌ ثقيل، كأنَّ الجدرانَ قد اتفقت على ألّا تُواسيها.
نظرت إلى المرآةِ المقابلةِ للباب، فرأت نفسَها، عينان غارقتان في البكاء، وجهٌ باهِت، وجسدٌ لم يعُد يأوي حُلمًا، بل قبرًا صغيرًا لحياةٍ لم تُولد...
دخلت مع زوجها، ذلك الذي لم يسألها ولو سؤالًا بسيطًا واحدًا «كيف حالكِ؟»
لم يضع يده على رأسها ليواسيها، لم يربّت على كتفها ليهدئها، بل كان يقف على الطَّرف الآخر، يراقب بصمتٍ يشوبه النّفور.

مرّت الأيَّام ببطءٍ مُميت، وظلّت زهراء على حالها، تُعدّ الطعام، تُرتّب البيت، كأنّ شيئًا لم يحدث.

لكن شيئًا كبيرًا قد حدث، شيءٌ لا يُقال، ولا يُشفى، ولا يُنسى.

يوْمًا بعد يوم، بدأت تتآكل من شدّة حزنها، وبدأت تُدرك شيئًا فشيئًا أنَّ هذا الرَّجل لم يُحبّها يومًا، بل أحبّ ما كانت تمنحه من طاعةٍ وصبرٍ وتجمُّل، وما إن فقدت القدرة على العطاء، انسحب كما تنسحب الأمواج عن الشَّاطئ حين تنكسر.

ذات مساء، جلست وحدها في غرفة الصَّالون، الأضواء منطفئة، والسَّتائر نصف مغلقة، نظرت إلى حلقات الزَّمن في حياتها، إلى كم مرّة سامحت؟ صبرت؟ وتنازلت عن كرامتها؟

همست بصوتٍ شبه مسموع:

«لم أعُد أُريد الاستمرار... لم أعُد أُريد أن أُقنع نفسي أنّ ما بيننا حبّ... لا أُريده عدوًّا، فقط... لا أُريده بعد الآن.»

وفي اليوم التَّالي، انتظرته حتَّى عاد من العمل، وجلست أمامه مرتديةً قناع الشَّجاعة:

- أظنّ أنّ ما بيننا قد انتهى منذ زمن، لكنّني لم أمتلك الشَّجاعة الكافية للاعتراف... الآن، أُريد الطَّلاق، ليس كُرهًا، بل احترامًا لما تبقّى من قلبي.

قالتها كما لو كانت تضع حدًّا لحربها الدَّاخليَّة، وكأنّها تنتظر في اللَّحظة التَّالية أن ينهار العالم، أن يتفجّر الحنين في عينيه، أن يرفض، أن يُكابر.

لكنّه وللمرّة الألف خان توقّعاتها، لم يفعل شيئًا، لم يغرق في دهشته، ولا حتَّى رفع حاجبيه بدهشةِ رجلٍ يُخذل أو يُترك للمرّة الأولى.

بل فقط، أومأ برأسه وقال بنبرةٍ باردة، خالية من النّدم والمشاعر:

- كما تشائين.

حدّقت فيه عاجزة عن الفهم، عن تصديق أنّ كلمةً بحجم «الطَّلاق» مرّت عليه مرور الغيم دون أن تُبلّله.

«أين الغضب؟ أين الرَّفض؟ أين العتاب؟ أين الشَّوق؟ الضّعف؟ الرَّجاء؟»

عندها فقط، تأكّدت زهراء من الحقيقة التي كانت تخشاها... لقد غادرها منذ زمن، لكنَّه فقط لم يُخبرها.... لم يكن ينتظر قرارها، بل كان ينتظر اللَّحظة التي تتحمّل فيها وحدها ثقل هذا القرار.

شعرت بشيءٍ غامضٍ يتمزّق في صدرها، لم يكن حبًّا، بل كان الأمل الذي تشبّثت به طوال زواجها.

ها هو يتمزّق ببطء، لكنّها الآن فهمت أنّها لم تكن تُقاتل من أجلهما، بل كانت تُقاتل وحدها.

العودة إلى الفصل الأوّل

«ندبةٌ على رقبةِ الرّوح»

في تلك اللَّيلة، كان اللَّيل أشدّ سوادًا من أيّ وقتٍ مضى.
الظَّلام كان يلتفّ حولها كما لو كان نذير شؤم، يُهندس أفقًا من الهمسات غير المرئيَّة، بينما كان الهواء في الغرفة ثقيلاً، غير قادر على أن يحمل أيّ أمل. كانت قمر جالسة على حافة سريرها، محاطة بتلك الغرفة التي أصبحت مكانًا يذكّرها بكلّ شيء إلَّا بالسَّلام. أضواء السَّقف تتأرجح ببطء، وتصرّف عقارب السَّاعة في الزَّمان كان كأنَّها تتعمد التَّباطؤ لتُطيل من معاناتها... لم تنم طوال تلك اللَّيلة.
كُلَّما أغمضت عينيها كانت ترى وجوه أطفالها، وترى كأنَّهم يتخبطون في عوالم لا تعرفها، لا تعرف كيف سيواجهونها وحدهم إن هي غابت.
خوفٌ ممزوجٌ بالحزن، يقتلع قلبها من مكانه، كأشواك تتسرَّب إلى عظامها.
نظرت إلى زوجها عمر، الذي كان يقف بجانب النَّافذة، جسده الممشوق لا يزال مشغولًا باللَّحظة القادمة، كما لو أنَّ روحين اثنتين تسكانهما.
ابتعد عن كلّ ما كان يجلب له السَّكينة، وانحنى فوق رأسها ليهمس في أذنها:
-قمر، كلّ شيء سيصبح بخير، سترين.
لكن كلمات عمر لم تكن كافية لتهدئتها، بل كانت كمن يضع الماء فوق نارٍ لا تنطفئ.

كانت عيناها مليئة بتساؤلات لا يملك هو إجابة عنها، وهي لا تريد منه سوى أن يقول: «لن تذهبين إلى ذلك المكان، لن تبتعدين عنِّي وعن أطفالنا.»

كانت تخشى أن يكون هذا الوداع الأخير، وأن تجد نفسها فجأة في غربةٍ غريبة، وحيدة دون أن تتذكَّر لحظات الفرح التي عاشت بها.

أمَّا عمر، فقد كان يحاول جاهدًا إخفاء مخاوفه. كان يراها قويَّة، شُجاعة، لكنَّه لا يستطيع أن يخفي من نفسه تلك الهاوية التي يشعر بها.

كان يراقبها وكلّ كلمة تخرج منه كان يقولها وهو يتخبَّط في بحر من الخوف.

وكانت هي في تلك اللَّحظة، تتمنَّى لو كان بإمكانه أن يشاركها تلك العتمة التي تملأ قلبها، وأن يعترف لها بأنَّه خائفٌ أيضًا.

لكن ما كان يعصفُ بها أكثر، هو أنَّها كانت تكرهُ فكرة أن تترك أطفالها.

ذلك الرَّضيع الَّذي لا يزالُ يَهْمِسُ في نومِهِ، وذلك الطِّفلُ الَّذي يَتَّكِئُ عليها في أبسطِ حاجاتِ يومِه، كم كانت تَلُفُّهُما بحِضنِها كلَّ مساءٍ، وتتمنَّى أن تكونَ لهما درعًا وحِمًى من قسوةِ الأيَّامِ.

ماذا سيحدثُ لهما؟ كيف سيعيشان؟

ثُمَّ رفعتْ رأسَها ببطءٍ، ونظرتْ إليه نظرةً تُشبه تلك اللحظاتِ الَّتي كانت فيها متحمِّسةً للحياةِ، حين كانت تُمسكُ بيدِ زوجِها، وتُخطِّطُ للمستقبلِ، ثمَّ شعرتْ بشيءٍ يشدُّ قلبَها إلى الأسفلِ، كأنَّها كانت على شفيرِ هاويةٍ بلا قرارٍ.

«عمر، هل سيعتنون بهم؟ هل سيبقون في أيدٍ أمينة؟»

قالت الكلمات بصوتٍ رقيق، وقد كانت الدُّموع تتجمَّع في عينيها، لكنّها لم تجرؤ على تركها تسيل.

ثُمَّ نظر إليها عمر بهدوءٍ وحزن وعيناه تضيئان مثل ليلٍ غامض.
«»نعم، ما بكِ يا قمرُ؟ إنّكِ ستتركينهم يومًا واحدًا فقط... سأكون هنا، ولن أتركهم أبدًا.»
ثُمَّ اقتربَ منها، وجلسَ على حافَّةِ السَّريرِ، مدَّ يده لتمسكَ بيده، لا ليستندَ فقط بل لتشعرَ بحرارةِ قلبِه:
- أنتِ لستِ وحدكِ، أنا معكِ، مهما حدث.
وهنالك، في تلك اللحظة، شعرت قمر بأنها تغرق في بحرٍ من الحب العميق، حتى وإن كانت تخشى أن تودّعه في اليوم التالي.
لكنها كانت أيضًا تعلم في أعماقها أن هذه المعركة التي تقف أمامها هي ليست سوى اختبار للقوة التي ستنبت من تحت الرماد.
كانت تغلق عينيها ببطء، وحين فتحتها ثانية، رأت في عينيه، شعاعًا من الأمل، كان يهديها القوَّة لتواجه تلك اللَّيلة المظلمة، ولتذهب إلى العمليَّة، لا كمُجرَّد امرأة، بل كأمّ، كزوجة، كإنسانة ستهزم الألم، وستبقى في قلب زوجها وأبنائها رغم كلّ شيء.

كان اللَّيل في أشدّ سكونه، يتدلّى من سقف الغرفة كستارة ثقيلة تلفّ الأشياء بصمتٍ لا يرحم.

قمر لم تكن تنام.

الوسادة تحت رأسها كانت باردة، والرَّغبة في النَّوم بعيدة، كأنّ اليقظة هي السَّبيل الوحيد لتمنح لليلها حياةً لم تعشها بعد.

استدارت ببطء نحو الجهة الأخرى من السَّرير، وهناك، على بعد أنفاس، كان عمر غارقًا في نومٍ خفيف، مُنهكًا من الخوف الذي حاول إخفاءه طوال النهار.

تأمّلته طويلاً... ذلك الوجه الذي حفظته حتَّى تفاصيل السُّكون فيه.

الأنف الذي يميلُ قليلًا نحو اليسار، والجبهةُ التي طالما عبسَ بها حينَ يُفكّر، والكتفُ الذي اتّكأت عليه ذاتَ مساءٍ، وهي تُغضي له بأحلامِها البسيطة.

وهي تنظر إليه، شعرت بشيءٍ عميق يتحرّك في قلبها... امتنانٌ موجع، امتنان لا تعرف كيف تعبّر عنه، ولا إن كانت ستملك وقتًا كافيًا لتفعله.

أرادت أن تضع يدها على صدره، أن تقول له: «شكرًا لأنَّك كنت دائمًا هنا... حين هرب الآخرون، كنت تقترب.»

لكن شيئًا في داخلها خاف أن يوقظه، خاف أن تُبكيه وهي لم تملك بعد أن تُمسك دموعها.

لم تخبره كم كانت تشعر بالأمان وهو يمشي إلى جانبها نحو الطَّبيب، وكم أحسّت بضعفها حين شدّ على يدها في الممرّ.

لم تخبره أنَّها كانت تستمدّ قوَّتها منه، لا من نفسها، وأنَّها في وحدتها كانت تُصلّي لله أن يحفظه، لا فقط لأجلها، بل لأجل الأطفال الذين لن يحتملوا غيابهما معًا.

كلّ ما لم يُقل، كان يُقال في عينيها الآن.

شعرت بوخز دمعة حارقة في زاوية عينها، لكنَّها لم تتركها تنزل...

خشيت أن توقظه وتُفسد هدوءه القلق.

فكَّرت:

لو أنَّ الغد لا يأتي، هل سيعرف كم كنت أحبّه؟ هل سيشعر كم كنت ممتنَّة له، لهذا الحضور الذي أنقذني؟

لكنَّها ابتلعت السُّؤال، كما ابتلعت الكثير من الكلمات، وأغمضت عينيها.

في داخلها، خفقت همسة:

«أحبّك، ولو لم أقلها، فإنَّ قلبي يكتبها لك كلّما نظرت إليك نائمًا إلى جواري.»

استقرَّت عيناها على ملامحه، وتساقطت الأفكار كحبَّات المطر في ليلٍ ممطرٍ في القلب...

كيف تُخبره أنَّها لطالما أحبّت تفاصيله الصَّغيرة؟

الطَّريقة التي يضع بها يده تحت خدّه حين يُريد النَّوم بسرعة، والصَّمت المهيب الذي يختبئ فيه حين يخاف، حتَّى نبرة صوته حين يُنادي أبناءه عند عودته من العمل... كلّها أشياء كانت تصنع لها طمأنينة العالم.

مدّت نظرها نحوه، كما لو كانت تُخزّن هذا الوجه في ذاكرتها، تحاول أن تُخلّده كما هو؛ هادئًا، حاضرًا، مُحبًّا، كما لم يكن أحد.

وفجأة، انسكبت دمعة واحدة فقط، لا أكثر، لكنَّها حملت معها كلّ ما لم يُقل، وكلّ الامتنان الذي كتمته في قلبها لسنوات، وكلّ المواقف التي ظلّ فيها ثابتًا لا يسأل شيئًا، فقط يبقى.

فكّرت، كم مرّة كان يمكنه أن يرحل؟ كم مرّةٍ ضاقت بها نفسها، ولم تجد من يصبر عليها سواه؟

كان الضَّوء الوحيد في كلّ عتمة مرّت بها، ولم تطلب منه شيئًا يومًا، لكنَّه كان يمنح دون أن يُسأل.

همست داخلها كأنَّ قلبها يُنشد صلاته الأخيرة:

«شكرًا لأنَّك لم تكن بطلاً، بل كنت إنسانًا... شكرًا لأنَّك احتويتني وأنا في أسوأ حالاتي، لأنَّك لم تُشعرني يومًا أنّني عبء، لأنَّك منحتني حبًّا بلا شروط...»

بكت... بكت بهدوء، بصمتٍ لا يُسمع، كانت دموعها رسالة، رُبَّما لن تصل، لكنَّها كانت كافية لها لتُكمل ليلتها وهي على يقين أنَّ الحب الذي سكنها بصمته قد يكون الشَّيء الوحيد الذي يجعلها تُحارب الغد بكلّ ما بقي فيها من حياة.

يوم العمليَّة

صباحٌ رماديّ، كأنّ الشمسَ تردّدت في الشُّروق، أو كأنّها شعرت بثِقَلِ هذا اليوم، فأبطأت خُطاها.

في الممرِّ الطَّويل، كانت قمر تسير بهدوءٍ مُتكلَّف، تتّكئ على ذراعِ عمر، وقلبُها ينوءُ بما لا يقوى الجسدُ على حملِه.

كانت خطواتهما بطيئة...

خطوة منه، وخفقة منها.

خطوة منه، ودمعة تحاول الفرار من عينيها، لكنَّها تؤجلها،

كأنَّها تُفاوض دموعها على الصَّبر حتَّى اللَّحظة الأخيرة.

وحين وصلا إلى الباب الأبيض، ذلك الباب الثَّقيل الذي يُشبه نهاية شيءٍ لا يُسمَّى، توقّفت قمر، التفتت إليه وعيناها لا تنظران في عينيه مباشرة، بل في ملامحه كُلّها، وكأنَّها تُنقّب عن آخر صورة تحفظها قبل أن تُغلق عليها الأبواب.

كان عمر يحاول التَّماسك، يبثّ في عينيها قوَّة لا يملكها، ويبتسم ابتسامة مشروخة، تفضحه أكثر ممَّا تُطمئِن.

لم تقل شيئًا، لكن يدها حين قبضت على يده كانت تقول كلّ شيء.

وفي اللَّحظة التي حاول فيها الطَّبيب أن يفصل بين يديهما، شعرت قمر كأنّ أحدًا اقتلع جزءًا من روحها.

انزلقت يدها من يده ببطء، لكنَّها ظلَّت ممدودة،
كأنَّها تقول: «انتظرني، لا ترحل عن قلبي.»
ومجرّد أن أُغلق الباب خلفها، انفجرت الدُّموع، دموعها لم تكن بكاءً، بل غرقًا في كلّ ما أخفته عنه تلك اللَّيلة.
بكت بصوت مكتوم في قاعة الانتظار البيضاء،
بين أيدٍ تجهّزها للجراحة،
بين خطوات الممرّضين، ورنين الأجهزة...
كانت وحدها تمامًا، رغم قربهم جميعًا.
في بهو المستشفى، امتزج الصمت بأصوات خافتة،
دعواتٌ تُهمس بين الشفاه، وأصابع متشابكة ترتجف دون أن تُظهر.
كان عمر يجلسُ على المقعدِ الرماديِّ، منحنِيًا قليلًا، كأنَّ كتفيهِ يحملانِ الجبلَ كلَّه.
حوله كانت أمُّ قمرٍ، وأختُها، وأمُّه، وبعضٌ من أقاربهِنَّ، لكنَّه لم يكنْ يراهم...
كان وجه قمر وحده هو الذي يسكن ذاكرته اللَّحظيَّة.
أعاد حديث الطَّبيب في رأسه عشرات المرّات:
«العملية بسيطة نسبيًّا، لكنَّها تظلّ دقيقة... لا شيء يدعو للقلق.»
ولكن لم يكن هناك ما هو غير مقلق حين تكون من تُحب على طاولة جراحة!
مرّت ساعتان، ثُمَّ ثالثة، ثُمَّ بدأت الدَّقائق تصفُّ نفسَها كأصفادٍ على معصمه،
كلّ دقيقةٍ لا يسمعُ فيها صوتًا قادمًا من غرفةِ العمليَّاتِ، كانت كأنّها تقولُ له: «ربّما لن تعود...»

أمُّه كانت تقرأُ سورةَ (يس) للمرةِ الرابعة، وأخت قمر تُردّدُ الشَّهادةَ بصوتٍ مخنوق، وعُمر لم يكنْ يكفُّ عن التحديقِ في البابِ المغلق، كأنّ عينيه تُناديانها: «قولي لي إنَّكِ بخير، قولي لي إنَّكِ ستعودين...»

ثُمَّ جاءَ الطَّبيب، وجهُه لم يكنْ حزينًا، لكنَّه لم يكنْ مطمئنًا بما يكفي.

قالَ بنبرةٍ هادئة:

- تمّتِ العمليّة، لكنّنا ننتظرُ استفاقتَها، هناكَ بعضُ التأخُّر، لكنّنا نتابعُ حالتها عن قُرب، لذا أرجو أن تتحلَّوا بالصبر.

كلمةٌ واحدةٌ فقط دوت في عقل عمر:

«تأخّرت في الاستفاقة!»

تلك العبارةُ شقّتْ قلبَه نصفين.

عاد إلى مقعدِهِ... جفَّتْ يداه، وتسرَّبَتِ الدماءُ من وجهِه، ظلَّ يتذكَّرُ وجهَها وهي تُمسِكُ بيدِهِ قبْلَ العمليَّة...

ظلَّ يسمعُ في داخلِهِ صدى دموعِها الصامتةِ تلك اللَّيلة، وتساءل:

هل كانت تُودِّعُني؟ هل شعرتْ بشيء؟ هل كنتُ أعمى أمامَ ذلك الوداع؟

مرَّتْ نصفُ ساعةٍ أخرى.

الوجوهُ بدأت تذبُل، والقلقُ أصبحَ كتلةً تسُدُّ الأنفاس، وفجأةً... فُتحَ البابُ قليلًا وخرجَ طبيبُ التَّخديرِ وقال:

- بدأتْ تستفيق لكن ببطء، ما زلنا نُراقبُ المؤشِّرات.

عُمر لم يُجِب، بل انحنى برأسِه، وأغمضَ عينيه وانهارتْ دمعةٌ على خدِّه... لم تكنْ دمعةَ حزنٍ، بل كانتْ رجاءً، رجاءً أن تعود، أن تفتحَ عينيها وتنظرَ إليه كما كانت تفعل دائمًا، وتقول له: «أنا هنا... لم أرحل.»

كانت الغرفةُ شبهَ مُظلِمة، والصَّمتُ فيها يُخيِّمُ كوشاحٍ ثقيل، أصواتُ الأجهزةِ تُصدِرُ رنَّاتِها الرَّتيبة، وفي الرُّكنِ الأيسرِ من الغرفة، كان عُمر جالسًا على كرسيٍّ صغير، لا يكادُ يتحرَّك، عيناهُ لا تُفارقانِ وجهَها، كأنَّهُ يخشى أن يَغفُو فتغيبَ عنه اللحظةُ التي تعودُ فيها قمر إلى الحياة.

وجهُها كان شاحبًا، هادئًا، كأنّها في غفوةٍ طويلة، غفوةٍ لا تُشبه النُوم، بل تُشبه رحلةً عبر الهاوية، تعود منها بشقِّ الأنفاس.

ثُمّ حدث ما كان الجميعُ يترقّبه... تحرّكت أصابعُها، وارتجف جفنُها قليلًا، ثُمّ ببطءٍ شديد، انفرجت عيناها، ثقيلتين كأنّهما لم تُفتَحا منذ قرن، وكان أوّلَ ما وقعت عليه نظراتُها... والديها، لكنّها لم تكن تُبصر جيّدًا من شدّة تأثير المُخدِّر.

ابتسامةٌ ضعيفة بالكاد تُرى، لكنّها كانت كفيلةً بأن تُعيد الرّوحَ إلى جسده.

لم تستطع الكلام، لكنّ نظرتها كانت تقول له:

«لقد حاولتُ لأجلك، لأجل أبنائنا... لم أترك يدكَ في العتمة.»

أغمضت عينيها ثانيةً، لا غيابًا، بل راحةً...

كأنّها أخيرًا تنام في حضنِ الأمان، وقد رست بعد معركةٍ طويلةٍ بين الحياةِ والمجهول.

بدأ وعيُها يعود ببطءٍ، كمن يصعد من قاعِ بحرٍ ثقيل... عيناها موصَدتان، لكن قلبَها كان يركض، يتخبّط، كأنّه يبحث عن شيءٍ ضاع في العتمة.

ثُمَّ خرج صوتٌ خافتٌ من صدرِها المرتجف:

- أولادي... أين هم؟

كانت الكلماتُ منكسرةً، لكنّها خرجت بحنينٍ يمزّق السّكون.

رفعت عينيها إلى السَّقف، الغرفةُ نفسُها، الرَّائحةُ ذاتُها، وصوتُ الأجهزة كما هو، لكن شيئًا ما تغيّر... إنّها هي.

مدّت يدَها ببطءٍ نحو عنقِها، تلمّست رقبتَها التي كانت يومًا ملساءَ ناعمة، فوجدت ضمادًا سميكًا يُغطّي ما خلّفته الجراح.

ارتعشت أصابعها، وفجأةً، اجتاحها شعورٌ غامرٌ بالانكسار.

«هل هذه أنا؟» همست في داخلها وهي تُحدّق في سقف الغرفة، تذكّرت انعكاس وجهِها قبل أسابيع، تذكّرت كيف كانت تعتني بنفسِها وتخاف على عنقِها من أقلّ نسمةِ برد... والآن، جرحٌ طويلٌ يمرُّ عليه الزمنُ ولا يُمحى.

بدأت الدُّموعُ تسيل بصمت، لم تبكِ من الألمِ الجسدي، بل من ثقل الشُّعورِ بالخوف، ومن أنَّها تغيّرت ولم تعُد كما كانت.

مرّت عليها لحظةُ ضعف لم تمرّ بها طَوال حياتِها من قبل، وفي لحظةِ ضعفِها تلك اقتربَ عمر، جلسَ بقُربِها، لاحظَ دموعَها المتخفّية، اقتربَ أكثر، أمسكَ يدَها، وهمس:

- نظرتُكِ الأولى بعد العمليّة كانت أجملَ ما رأيتُ في حياتي... أمّا هذا الجُرح، فهو لا يُشبهكِ، لكنّه يُشبهُ قوّتكِ، إنّه شاهِدٌ على معركتِك، وعلى نجاتك.

لكنّها لم تنظُر إليه، كانت ترفُضُ تصديقَ أنّها جميلةٌ رغم الجُرح أنّها ما زالت هي.

فقالَ عمر، وهو يُمسِكُ وجهَها بكفّيه، ويُثّبّتُ نظرَهُ في عينيها مُباشرة:

- قمر... لو رأيتِ نفسَكِ كما أراكِ أنا لبكيتِ من شدّةِ الامتنان، أنتِ لم تفقدي شيئًا بل اكتسبتِ حياةً ثانية، وهذا الجُرح! هو وَشمُ البطولةِ على جسدِ امرأةٍ لا تُهزَم.

ثُمَّ قبّلَ جبينَها برفق، وهمس:

- أعدُكِ... لن أدَعَكِ ترَينَ نفسَكِ بعينِ النَّدم، بل بعينِ النُّور الذي ما زلتِ تُضيئينَ به عالمي كلَّه.

عندها فقط، أغمضتْ قمرُ عينيها، وابتسمتْ لأنّها أدركتْ أنّ الجمالَ لا يُقاسُ بما نراه، بل بمن يرى فينا المعجزةَ رغمَ الألم.

حينَ فتحت قمر بابَ بيتِها، شعرتْ لوهلةٍ أنّ كلَّ شيءٍ تغيّر، لكنّ الحقيقةَ أنّها هي من تغيّرت.

الجُدران نفسها، ألعاب أطفالِها مبعثرةٌ كما كانت، رائحة الطَّعام الدَّافئ تتسلّلُ من المطبخ، كلُّ شيءٍ كما تركتْه... لكنَّ قلبَها لم يَعُد كما كان.

أمسكتْ بطرفِ حجابِها، ونظرتْ إلى المرآةِ المُعلّقةِ في الممر، فرأتْ في انعكاسِها شيئًا جديدًا (امرأةٌ بنصفِ ابتسامةٍ، وجُرحٍ ناعمٍ يشقُّ رقبتَها كعلامةِ نصر).

كانتِ الندبةُ هناك، لا تُخفي نفسَها، بقيتْ لأيامٍ تتحسّسُها، تخافُ أن يراها أولادها، أو تلتقطها أعينُ المارّة، لكنّها سرعانَ ما فهمت أنّ ما يُؤلمُ ليس الجُرح، بل العار المرتبط به في ذاكرتِها.

مرّتِ الأيّام، وتعلّمت قمر كيف تعتني بندبتِها كما تعتني بزهرةٍ فريدة، كانت تدهنُها كلَّ مساءٍ، لا لأجلِ علاجِها فقط، بل وكأنّها تقولُ لها: «شكرًا لأنّكِ هنا... لأنّي ما زلتُ هنا.»

ومع مرور الوقت، تحوَّلت الندبةُ من وصمةٍ في نظرِها إلى هُويَّة، كلَّما نظرتْ إليها، تذكَّرتْ تلك الليالي الطويلة، تذكَّرتِ الخوفَ، الصَّمتَ، والدُّموعَ المكبوتة... لكنَّها تذكَّرتْ أيضًا من وقفَ إلى جانبِها، من لم يهربْ من ضَعفِها، من جعلَها ترى في نفسِها امرأةً تستطيعُ أن تنهض... ولو من الرَّماد.

في إحدى الأمسياتِ، وبينما كانت تُرتّبُ سريرَها، اقتربَ منها عُمر، ثبَّت نظرَه في عينيها طويلًا، ثم قال:

- هل تعلمين، أنا لا أرى نُدبةً على عُنقِكِ، بل بابًا مفتوحًا نحوَ حياةٍ جديدة.

ضحكتْ قمر بخِفَّة وضمَّت رأسَها إلى صدرِه ولم تقلْ شيئًا، لأنَّها أخيرًا فهمت المعنى العميق للصُّمود.

لم يكن الأسبوعُ الذي تلا العمليَّة مُجرَّد سبعةِ أيّامٍ، بل كان دهرًا من الانتظار، يمشي بثقل الخائف، ويتنهَّد بثقل العاجز.

كلَّ صباحٍ، كانت قمرُ تستيقظُ على شعورٍ خفيٍّ يجثمُ على صدرِها ليُذكِّرَها أنَّ المعركةَ لم تنتهِ بعد، وأنَّ الجُرحَ الذي يلتئمُ على رَقبتِها، ما هو إلّا نصفُ الطَّريق، وأنَّ النصفَ الآخرَ مُعلَّقٌ بتحليلٍ يُقالُ عنه: «نهائيّ».

حاولتْ أن تبدوَ قويَّة، كانت تضحكُ مع طفلَيها، تُعدّ الطعامَ كما اعتادت، وتُبادلُ عمرَ الحديثَ بابتسامةٍ هادئة، لكنَّ في داخلِها، كان الخوفُ ينهشُها بهدوءٍ قاتل.

في اللّيل، كانت تستيقظُ فجأة، تلمسُ رقبتَها وكأنَّها تبحثُ عن طمأنينةٍ ما، تسألُ نفسَها بصوتٍ داخليّ: «هل شُفيتُ فعلًا؟ أم أنَّ هناك شيئًا آخرَ ينتظرُني؟»

لم يكنِ الانتظارُ صعبًا بسببِ الشَّكِّ فقط، بل بسببِ الأمل، فالأملُ حين يكبُر يُصبحُ مُرعبًا، لأنَّك تخشى أن تخسرَه دفعةً واحدة.

كان صباحُ اليومِ السَّابعِ مختلفًا، لا شيءَ في الخارجِ يُوحي بذلك، فالسَّماءُ رماديَّةٌ كما اعتادت هذا الأسبوع، والمارَّةُ يمضون في طريقِهم كأنَّ شيئًا لم يكن، لكنَّ داخلَ قلبِ عمر كانت حربٌ صامتةٌ تدور، لا تُرى.

وصل إلى المستشفى باكرًا، جلسَ في رُدهةِ الانتظار، يضغطُ كفَّيهِ بعضَهما ببعض، ويُردّدُ في سرِّه دُعاءً واحدًا لا يتغيَّر: «اللهمَّ طمئنْ قلبي على قمر.»

مرَّتِ الدقائقُ كسِنين، ثُمَّ نادتهُ الطَّبيبة.

نهضَ، وقدماه لا تكادانِ تحملانِه من التَّرقُّب،

وما إن دخلَ مكتبَها حتى نظرتْ إليهِ بابتسامةٍ دافئة، وقالت بهدوء:

- الأخبارُ طيّبة سيّد عمر، نتائجُ التحاليلِ تؤكّد أنَّ الورمَ كان حميدًا وزوجتُك الآن شُفيَت تمامًا.

لم يُجِب، ظلَّ يُحدّقُ بها كأنَّه لا يُصدّقُ أنَّ الكلماتِ التي سمعَها حقيقيَّة، ثُمَّ ابتسمَ بارتباك وارتجفتْ شفتاه،

شكرَ الله وحمدَهُ على لُطفِه، وشكرَ الطبيبة وخرج وقلبُه يركضُ أسرعَ من خطواتِه.

أخرجَ هاتفَه، واتّصلَ بقمر.

كان قلبُها يخفقُ منذ الصباح، تنتظرُ اتّصالَه كما تنتظرُ الأرضُ المطرَ.

رنَّ الهاتف، أجابتْ بسرعة:

- عمر؟

وصوتُه يأتيها مشبعًا بدموعٍ محبوسة:

- قمر... النتائجُ بين يديّ.

سكتَ لحظة، ثُمَّ تابع:
أنتِ شُفيتِ يا قمر، النتائج تؤكّد ذلك... انتهى... انتهى الكابوس.
لم تُجب، ظلَّ الهاتفُ على أذنِها لكنَّ عينيها امتلأتا بالدَّمع حتى انسكب.
كان بكاؤُها صامتًا لكنَّه عنيف، يشقُّ أعماقَها كنبعٍ فجَّر صخرًا قديمًا. ثُمَّ دون تفكير، سجدتْ في مكانِها، سجدتْ باكية، تُردّدُ بامتنانٍ خافت:
- يا رب... الحمدُ لك... شكرًا يا الله...
لم تتركني وحدي... كنتَ معي... كنتَ معي طَوالَ الوقت.
بكتْ، وبكتْ، وفي قلبِها يقينٌ واحد: «أنا وُلِدتُ من جديد.»
حين رفعتْ رأسَها، كان وجهُها مبلَّلًا،
لكنَّ روحَها كانت نقيَّة، خفيفة، كما لم تكن منذ شهور.
لم تكن دموعُ قمرٍ في تلك اللحظةِ مجرَّدَ ماءٍ ينسكبُ من عينيها، بل كانت صفحاتٍ من الألمِ تُغسَل، وطبقاتٍ من الخوفِ تتلاشى، وسنواتٍ من الترقُّبِ والحيرةِ تُدفنُ مع كلِّ قطرة.
أغلقت الهاتفَ بيدٍ ترتجف، ثُمَّ وضعت راحتيها على وجهِها وبكتْ كما لم تبكِ من قبل.
بكتْ بحرقةٍ تُشبهُ الحنين، حنيناً إلى ذاتِها التي كانت تائهة، مرعوبة، مُتعبة...
بكتْ وكأنَّ كلَّ خليّةٍ في جسدِها كانت تسجدُ معها، تُسبّحُ بحمدِ الله، وتشهقُ بين الحينِ والآخرِ بشكرٍ لا تكفيه الكلمات: «يا رب... يا رب... شكرًا لك، كنتَ الوحيدَ الذي يعلمُ كم كنتُ خائفة، وكم ادّعيتُ القوّةَ لأجلهم.

ضمّت كفّيها إلى صدرِها وشعرتْ - لأوّل مرّة - أنَّ جسدَها عادَ مِلكًا لها، أنَّ الحياةَ تنبضُ فيها لا ضدَّها.

كانت دموعُها تسيلُ حارَّةً على خَدّيها، لكنَّ في داخلِها بردٌ جميلٌ، طمأنينةٌ تُشبهُ حضنَ السّماءِ.

وقفتْ ببطء، ومشت نحوَ النّافذة، نظرت إلى الشّارعِ، إلى النّاس، وهمستْ بخفَّة: «يا الله، كم هي جميلة الحياة حينَ تُعطينا فُرصةً أخرى».

ضحكتْ بين دموعِها ضحكةً صغيرة لكنَّها صادقة، تلك الضّحكة التي لا يطلقُها إلّا من ذاقَ مرَّ الهلاك ثُمَّ عاد سالمًا بحمدٍ لا ينتهي.

مرَّ شهرٌ كامل، ثلاثونَ يومًا من الحياةِ بعد الموت، من التّنفّسِ بلا أنين، لكنَّ شيئًا ما ظلَّ عالقًا في أعماقِ قمر... شيءٌ لم تُشفَ منه بالجراحة، ولا بكلمة: «أنتِ بخير الآن».

كانت تمضي يومَها بين رعايةِ طفلَيها وابتسامةٍ تُزيّنُ وجهَها كي لا تُقلقَ من حولَها، لكنَّها حين تُغلقُ بابَ غرفتِها ليلًا، كانت تسمعُ الصّمتَ يصرخُ فيها. نظراتُها في المرآةِ لم تَعدْ كما كانت، وصوتُها بداخلِها يسألُها مرارًا: « هل عُدتِ فعلًا؟ أم أنَّكِ فقط تُنقذين الآخرين من قلقِهم عليكِ؟»

في صباحٍ رَماديّ، قرَّرت أن تكتب لنفسها رسالةَ نجاةٍ حقيقيّة. فتحت هاتفَها، وبحثت عن أقربِ مركزٍ للدّعمِ النفسيّ، وجدت عنوانًا لا يبعُد كثيرًا، واسمُه بدا وكأنّه يُناديها «نحو الذات».

في الموعدِ المُحدَّد، ارتدَت حجابَها البُنّي، ومعطفَها الكُحليَّ الذي طالما شعرت فيه بالثَّبات واصطحبت معها مُذكّرةً صغيرة، كأنّها أرادت أن تَدوّن أولَ يومٍ في وِلادتها الجديدة.

حين دخلت قاعةَ الاستقبال، كانت أنفاسُها تتسارع، لا خوفًا، بل استعدادًا لخلع آخرِ قناعٍ كانت ترتديه. ابتسمَت لها الموظفة، وقدّمت لها استمارة... جلست قمر على الكُرسيّ الجانبيّ، نظرت حولها، فتياتٌ ونساءٌ بوجوهٍ صامتة، كأنّ كلَّ واحدةٍ منهن تُخفي معركتَها الخاصّة.

تنهّدت بعمق وأمسكت القلم، كتبت اسمَها بخطٍّ ثابت، ثمّ كتبت بجانب خانة «السبب»:

«أُريد أن أتعافى، ليس من المرض، بل من الخوف، من النّدبةِ التي لا يراها أحد، من كلِّ ما كَسرني بصمت.»

أغلقت القلم، ونهضت بخِفّة، في عينيها بريقٌ جديد، ليس بريقَ القوّة، بل بريقَ مَن قرّر أخيرًا أن يُواجه ضَعفَه، لا ليُخفيه، بل ليَحتضنه.

العودة إلى الفصل الثاني

في بُؤرةِ الخيانة... تولد القوّة

كانت الأوراقُ مُبعثرةً على مكتبِها، فواتيرُ متراكمة، إشعاراتٌ مُستحقّة، وتفاصيلُ ماليّةٌ لم تكن تعلم عنها شيئًا.

نور، التي طالما آمنت بأنّ الفنَّ وحده يكفي، وجدت نفسَها فجأةً في دوّامةِ أرقامٍ لا ترحم.

عبثت بين الملفَّات، حتَّى وجدت عقدًا باسم ألاء، ومُذكّرةَ تفاهم موقَّعةً دون علمِها، ومبلغًا كبيرًا تمّ تحصيلُه دون أن يدخل في حسابِ المرسم.

تجمّدت أنفاسها، تاهت عيناها بين السُّطور وشعرت وكأنّ الأرضَ تسحبها بهدوءٍ إلى قاعٍ لم تكن تتخيّله.

مرّ طيفُ ألاء في ذهنها، ضحكتُها، طمأنتُها المستمرّة بأنّ «كلّ شيءٍ تحت السَّيطرة»، العباراتُ النَّاعمة التي كانت تُخدّر شكوكَها كلّما حاولت الاقتراب من تفاصيل الإدارة.

أمسكت هاتفَها، وضغطت على الرَّقم، وصوتُها رغم ارتجافِه خرج صارمًا:

- ألاء... نحتاج أن نتحدّث الآن، رجاءً.

***

في المرسم، حيثُ اعتادتا الجلوس لتخطيط أحلامهما، جلست نور بهدوء مريب، وأمامها كلّ الأوراق مكشوفة.

دخلت ألاء، وابتسامتها المعتادة ترتسم على وجهها، لكنَّها انطفأت فور أن التقت بنظرات نور.

«ما هذا؟» سألت نور، ومدّت يدها بالعقود.

ألاء صمتت، ثُمَّ همست:

- كنتُ أحاول أن أساعد، لم أرد إقلاقكِ.

قاطعتها نور، والغصّة تخنق صوتها:

- أكنتِ تساعدينني أم تستثمرين خلف ظهري؟

كنتِ توقّعين، وتقبضين، وتديرين، وأنا لا أعلم شيئًا؟

تمتمت ألاء مرتبكة:

- نور صدِّقيني، فعلت ذلك لأجلنا، المرسم كان بحاجة إلى دعم، لكن بأيّ ثمن؟!

صوت نور ارتفع للمرَّة الأولى، كانت تنظر إليها كأنَّها ترى شخصًا غريبًا:

- الدُّيون تحاصرنا والسُّمعة في خطر، وأنتِ طوال الوقت تطلبين منِّي أن أثق، بينما كنتِ تخفين عنِّي أكثر ما يجب أن أعرفه!

ثُمَّ أردفت، بصوت مكسور:

- كلّ ما طلبته منكِ هو الشَّفافية، لم أكن شريكتكِ في الفنّ فقط، كنتُ أختكِ، لكنَّكِ اخترتِ أن تسيري وحدكِ، وتركتِني أحارب الظّلال، وأنا أظنّ أنّي في النُّور.

سقط الصَّمت بينهما كصخرة، بين خيانة الثّقة، وثقل الاعتراف.

توقّفت ألاء لبرهة، حدّقت في نور التي وقفت أمامها بعينين دامعتين، ثمَّ فجأة، ارتسم على وجهها تعبير غريب... ليس اعتذارًا، بل مزيجٌ من برودٍ واحتقارٍ خفيّ.

قالت بصوت منخفض، لكنه مشحون:

- هل انتهيتِ؟

رفعت نُور حاجبَيْها بدهشة، لكنَّ ألاء تابعت، بصوتٍ تصاعدت فيه نبرة السخرية:

- تعرفين ما مشكلتُكِ يا نُور؟ أنكِ تعيشين في فُقاعة الفنّ، تظنّين أن الأحلام وحدها تُطعمنا، وأنّ اللوحات ستسدِّد فواتير الكهرباء والضرائب!

خطَت خطوة نحوها، وأكملت بنبرةٍ لاذعة:

- كُنتِ منشغلةً بالألوان، وأنا غارقةٌ في دوّامة القرارات الصَّعبة.

أنا من أنقذَ المرسم أكثر من مرّة... أنا من سَهِر وركض ووقّع واتّفق، بينما كنتِ تُمطرين الحوائط بأمنياتٍ ساذجة لا تُغني ولا تُسمن من جوع!

نور لم تنطق، لكن وجهها احمرَّ من الدَّهشة والخذلان.

اقتربت ألاء أكثر، وعيناها تتّقدان:

- تلومينني؟ تلومينني لأنَّني تجرّأت على أن أكون واقعية؟ بينما أنتِ بقيتِ طفلةً تهرب من الحسابات والحقائق؟ أنتِ من تركتِ كلّ شيءٍ بين يدي، والآن، حين اشتدّت العاصفة، تتظاهرين بأنكِ الضحيّة النقيّة؟

رفعت نور عينيها بتماسك، كانت ترتجف، لكنّ شيئًا فيها بدأ يتصلّب، أجابت بهدوء، كمن اكتشف الحقيقة للتو:

- ما فعلتِه ليس شجاعة، بل خيانةٌ مغطّاةٌ بالمنطق، لم أكن أحتاج مَن يُدير المرسم وحده، كنتُ أحتاج مَن يسير معي لا فوقي.

سكتت لحظة، ثُمَّ تابعت:

- الآن فقط عرفتُ أنَّ الخسارة الحقيقية لم تكن مادية، بل إنسانيّة.

لم تتراجع نور، رغم ارتجاف يديها، رفعت الأوراق من جديد، وصفعتها فوق الطاولة أمام ألاء، وقالت بصوتٍ مكسور، لكنه حازم:

- أخبريني، كيف سنُسدِّد كلَّ هذه الديون؟ هل لديكِ خطة؟ هل فاتحتِ أحدًا أم أنني سأتحمّل وحدي كلّ شيء كما حدث من دون علمي؟

رفعت ألاء كتفيها ببرود، كأنها تتحدث عن غريبٍ لا يعنيها، ثُمَّ قالت:

- هذه مشكلتكِ الآن، أنتِ مَن قرَّرتِ الاستقلال، فأكملي الطريق كما تشائين.

شهقت نُور، وكأنّ الكلمات صَفعتها، وهمست بصوتٍ مرتجف:

ألاء... لا يُمكن أن تكوني أنتِ، هذا المرسم حلمنا، نشأنا فيه معًا، كيف يمكنكِ أن تُديري ظهركِ وتتركيني أغرق؟

ابتسمت ألاء بخفّة، ثُمَّ التقطت حقيبتها وقالت وهي تسير نحو الباب:

الحُلم انتهى، يا نور، ولا رابطة لي بالمرسم بعد الآن، أُقدِّم لكِ هذه الديون هدية، اكتفيتُ منكِ ومن أحلامكِ التافهة.

خرجت، وصفعت الباب خلفها وسط ذهول نُور التي لم تستوعب بعد ما حدث.

وبقيت نُور وحيدةً، في صمتٍ يضجّ بالخذلان.

لم تكن الديون وحدها ما ينهش صدرها، بل ذلك الجُرح غير المرئي... جُرح الخيانة، حين يقرّر أقرب من ظننتِهم سندًا، أن يتركوكِ تمشين على الزجاج، حافيةً وحدكِ.

لم يكن الخذلان في الكلمات، بل في الطَّريقة التي أُوصد بها الباب خلفها، كأنَّها لم تكن يومًا شريكتها، كأنّ الحُلم لم يكن مشتركًا، كأنّ الذِّكريات تافهة لا تساوي شيئًا.

جلست نور على الأرض، احتضنت دفاتر الحساب، والفواتير، والإشعارات البنكية المتراكمة، الورق كثير، والضياع أكبر، والألم لا يُحصى.... لكن وسط هذا الخراب، كانت هناك جَمرَة لم تخمد، جمرة كانت هي نور ذاتها، قبل كلّ شيء.

الطفلة التي أمسكت أوّل ريشة، الفتاة التي كانت ترسم لتنسى جراح العالم، المرأة التي قاتلت كثيرًا كي تصنع مكانًا يُشبه روحها.

مسحت دموعها بقسوة، كأنها تنتقم من ضعفها،
وقفت، تنفّست بعمق، وفتحت النوافذ:
- لن أترك المرسم يسقط، لأنني إن تركته يسقط، سأكون قد خُنتُ نفسي أنا.
بدأت نُور خُطاها من الصفر، باعت بعض لوحاتها القديمة بثمنٍ زهيد، اتّصلت بزملاء، بمعارف، بمن كانت تخجل أن تطلب منهم معروفًا... رَفَضَ بعضهم، وتردّد آخرون، لكن قلّةً آمنت بها.
ثم بدأت ترسم من جديد، سهرت الليالي، ورسمت بالألم، وصبّت في كلّ لوحةٍ دموعها المكبوتة؛ فجاء الفنّ نقيًّا، صادقًا، وموجعًا.
وبينما كانت تُسدِّد أول قسطٍ من الدين، نظرت نحو اللوحة الجديدة المُعلّقة في الواجهة، فرأت فيها ملامحها القديمة، لكن بعينين مختلفتين... عينان تعلّمتا أن الثقة لا تُمنَح بسهولة، وأنّ النهوض، حتى من رُكام الخيانة، هو أعظم انتصار.
لم تكن الديون أرقامًا على ورق، بل ثقلًا يجثم على صدر نُور مع كلّ شروق. كلّ يومٍ جديد يحمل مطالبة، واتّصالًا من بنك، ورسالةً إلكترونية مليئةً بالتهديد، بلغةٍ قانونيةٍ باردة لا تعرف شيئًا عن الأحلام، ولا عن الصداقات التي تموت وهي تبتسم.
كانت نور تعمل بلا توقف، ترسم، تبيع لوحاتها بثمن لا يليق بفنها، لكن الحفر في الجبل بملعقة خشبية أشدّ رحمةً من محاولة سدّ فجوة تركتها خيانة.

كلما سددت قسطًا، ظهر قسطٌ آخر، كلما أطفأت نارًا، اشتعلت خلفها حرائق أخرى.

أشهرٌ مرّت، وجسدُها أنهكه السَّهر، رُوحُها تكلَّست، وصوتُ آلاء لا يزال يرنُّ في أذنيها: «أنتِ من اختارتِ أن تتحمّلي... فأكملي الطريق.»

نعم، أكملت الطريق، ولكنّها وصلت إلى نهايته، وعرفت حينها أن التمسُّك لا يعني دائمًا القوة، وأحيانًا يكون التّحرُّر هو الشجاعة.

في صباحٍ خريفيّ رماديّ، دخلت المرسَمَ وحدها. كان الصمتُ في المكان موحشًا، كأنّه يُعاتبها. سارت ببطءٍ، لامست الجدران، وتأمّلت أوّل لوحةٍ عُلِّقت هناك. ضحكت بسخرية، ثم همست:

- حتى الجدران أصبحت لا تحتملني.

بعد أسابيع من العذاب والمراجعات، وقّعت عقد البيع. نعم، باعت المرسَم، ولكنّها لم تَبِعْ حلمها، بل فقط المكان الذي تشوَّهت فيه معانيه.

وقفت على الرصيف، تتأمّل المكان للمرة الأخيرة، وعيناها تفيضُ بالدمع، لكنّ قلبها كان أخفَّ من أيِّ يومٍ مضى.

«المرسَم كان البداية... لكنني لستُ النهاية بعد.»

استدارت ومضت، تمشي بلا خريطة، لكنّ خطواتها لم يَشُبْها التردّد. عادت إلى غرفتِها، تلك التي لا تُشبه المرسَم لا في شكله، ولا في رائحة الألوان، ولا في ضوء الشمس الذي كان يرقص على الجدران، ولا حتى في تلك الزاوية التي

اعتادت أن ترسم فيها وتضحك كأنّ الحياة كانت ممكنة. جلست على الأرض، أسندت ظهرها إلى الحائط البارد، وضمّت ركبتيها إلى صدرها، ثمّ رفعت رأسها تحدّق في السقف كأنّها تبحث عن معنًى يختبئ في ذلك البياض الفارغ. كان الصمت يخيّم على المكان، لا صوت يعلو سوى عقارب الساعة وهي تمضي ببطء يُثير الغثيان، كأنها تسخر منها، كأنها تقول: «الوقت لا يتوقّف لأجل من كُسرت أحلامهم.» مرّت أصابعها على راحة يدها، وتلمّست تلك الندبة الصغيرة التي تركها سكين القصّ يوم كانت تقطع الورق استعدادًا لأحد المعارض. أغمضت عينيها ببطء، وهمست في وجع خافت: «كم تمنّيتُ أن تظلّ تلك الندبة الوحيدة في حياتي...»

لكن الندوب الحقيقية لا تُرى.

فقدت مرسمَها، وفقدت آلاء، وفقدت جزءًا من ذاتها، ذلك الجزء الذي كان يؤمن بأنّ النيّة الطيّبة تكفي، وبأنّ الحبّ وحده قادرٌ على النجاة. شعرت فجأة بأنّ كلّ ما فيها ساكن، وكأنّ الروح قد انسحبت منها بصمت. ولأول مرة منذ زمنٍ طويل، بكَت نور... لا من خيانة، ولا من تعب، بل من فراغ: «أين أذهبُ بكلّ هذا الثِّقَل؟ بِمَن أُشاركُ حزني دون أن أخشى أن يُستَخدم ضدي؟ كيف أستعيدُ نفسي؟ وهل ما زال هناك ما يُستعاد؟» أسئلةٌ ظلّت معلّقةً في سقف الغرفة، لا إجابة، ولا عزاء.

لكن في أعماق هذا السُّكون، كان ثمّة نبضٌ خافت ظلّ حيًّا؛ كأنّ روحها رغم كلّ شيء، لم تمت بعد... فقط تحتاج إلى يدٍ تُربّت على كتفها، أو حتى عينٍ تُشعرها بأنّها ما تزال مرئيّة.

مرّت الأشهر كأشباحٍ ثقيلة، أيامُها تُشبه لياليها؛ لا جديدَ سوى الصمت، ولا صوتَ سوى ضجيجِ الأفكار في رأس نور.

كانت تجلس كلّ صباح في المقهى ذاته، على الكرسيّ المعتاد قرب النافذة، فنجانُ قهوةٍ نصفه مُرّ ونصفه بارد، ودفترُ رسمٍ مغلقٌ منذ أسابيع، كأنّها تخشى أن تُواجه فراغها على الورق.

وفي أحد تلك الصباحات الرماديّة، كانت تقلب صفحات هاتفها بلا هدف، حين توقّف إصبعُها عند منشورٍ خافت. لم يكن إعلانًا صاخبًا، بل صورةً لورقةٍ صغيرة على جدارٍ قديم، كُتب عليها: «لستَ وحدك... تعالَ لنتشارك الصمت، حتى يعودَ لصوتك معنًى.»

تحتها، وُجد شعارٌ بسيط لمركزٍ يحمل اسمًا دافئًا: «نحو الذات».

ضغطتْ نور على الرَّابط بفضول مشوب بالحذر، لم تكن تنوي شيئًا، لكن شيئًا في تلك الكلمات لامس الجزء المُنهك من قلبها.

فتحت الموقع وقرأت:

«نحن لا نعدك بأن نُعيد ما مضى، بل بأن نمنحك مكانًا آمنًا... لتبدأ من جديد، كما تشاء، كما أنت.»

أغلقت الهاتف فجأة.

قلبها يخفق بطريقةٍ غير مفهومة، كأنها رأت نافذةً تُفتح لأول مرة بعد عاصفةٍ طويلة.
نظرت من النافذة نحو السماء، لم تكن زرقاء، لكنها لم تكن معتمةً تمامًا أيضًا:
«ماذا لو جرّبت؟ أسوأُ ما قد يحدث، أن أشعر بشيء.»
لم تكن مستعدةً لتفتح جراحها أمام غرباء، ولم تكن تملك القوة لتشرح ما لا تفهمه أصلًا؛ لذلك، أغلقت هاتفها، وضمّت كفّيها إلى صدرها، كأنها تحتمي من فكرة الشفاء نفسها.
لكن الإعلان ظهر مجدَّدًا...
بعد يومين، وهو يمرّ في صندوق بريدها الإلكتروني...
وفي اليوم الثالث، على صفحة كتابٍ كانت تقرأه بالصدفة...
ثمَّ في لوحةٍ صغيرة عُلّقت على جدار مكتبةٍ قريبة، بخطٍّ مألوف: «نحو الذات... مركز الدعم النفسي».
تجمّدت للحظة، كأنَّ القدرَ يصرخ فيها بعد أن همس مرارًا.
في تلك الليلة، كانت وحيدةً أكثر من العادة، الصمتُ أكثر قسوة، والذكرياتُ أكثر حدّة.
فتحت هاتفها، بحثت عن «مركز نحو الذات»،
دخلت إلى الموقع، كتبت اسمها، اختارت أقرب موعد، ثمَّ ترددّت قبل أن تضغط «تأكيد الحجز».
لكنّها فعلت... وكأنها، أخيرًا مدّت يدها في العتمة علّها تمسك بطرفِ الضوء.

العودة الى الفصل الثالث

جدران فارغة.

في قاعة المحكمة، كان الصمت أكثر ثقلاً من أي ضجيج، كما لو أن الهواء نفسه امتلأ بعبءٍ لا يُطاق. زهرة جالسة في مكانها، قلبها يكاد يتوقف مع كل همسةٍ في الهواء. أمامها، زوجها الذي كان يومًا ما رفيقًا لحلمها، والذي كان يحمل في قلبه وعودًا لم تتحقق، صار الآن مقعدًا من الألم والمراوغة.

جلسة الطلاق كانت أكثر من مجرد إعلان قانوني. كانت إعلانًا لواقع جديد ستهبط فيه زهرة إلى قاعٍ مظلم، بعيدًا عن كل ما كانت تحلم به. كانت قد اعتقدت ذات يوم أن الحب سيحفظ كل شيء، لكنه تمزق مثل خيوطٍ قديمة لم تعد قادرة على الصمود أمام العواصف.

الزوج الذي كان يُقسم أن حبَّهما هو الأبدي، كان الآن يضع أوراق الطلاق أمامها بلا تردد. لا تعابير على وجهه، وكأن كل ما تبقى منه هو صمتٌ باهت، حبرٌ مُحي في الورق. زهرة التي كانت تتمنى أن ترى في عينيه شيئًا يُعيد لها الأمل، لم تجد إلا بقايا رجلٍ هزمته الخيانة... خيانة لا تصدر من جسدٍ آخر، بل من قلبه هو.

استفاقت زهرة على صوت القاضي، الذي نطق بالحكم، ولم تستطع أن تميز بين الصوت والموت الذي شعرته في لحظتها. قلبها ينفطر، عيناها تحدقان في الجدران، عقلهما يرفض تصديق ما يحدث. خرجت الكلمات من فمها بتلك السرعة الباردة، وكأنها مجرد صيغة رسمية لا تحمل لها أية معنى.

بغض النظر عن الأسباب، وبغض النظر عن كل الوعود التي تلاشت، وجدتها تدير وجهها بعيدًا. لا تريد أن ترى تلك الحافة في عينيه، ولا تلك الهالة الباهتة في موقفه. داخلها، تتخبط الأفكار: هل كان هذا هو حبه حقًا؟ وهل كان هذا زواجها؟ لا شيء يبدو ذا معنى في هذا الكون الذي يتلاشى الآن.

بالخارج، كانت شمس الظهيرة تُلقي بشعاعها الحار، لكن داخل زهرة كان عالمًا مظلمًا. في كل خطوةٍ نحو الباب، شعرت بالزمن ينزلق من بين أصابعها، وعقلها يعلن انتهاء كل شيء.

في السيارة، حين كانت تسير على الطريق الخالي، قررت أن الحياة لم تكن تنتظرها أبدًا. كان هذا هو الطريق الذي لا عودة فيه. فقدت الأمل في كل شيء، في الحب، في الوعد، وفي المستقبل. وبمزيدٍ من الحزن، تذكرت الجنين الذي كان في بطنها، ذلك الأمل الذي كان يملأ قلبها فرحًا ويمنحها سببًا للاستمرار. لكن ذلك الأمل أيضًا تمزق مع خيانة زوجها، وتلاشى مع انقضاء الأيام...

أغمضت عينيها للحظة، وتذكرت كيف كانت تخاطب نفسها: «هل أستحق كل هذا؟ هل استحقَّت روحي هذا الألم؟» أجابت نفسها بمرارة. في تلك اللحظة، كانت قد فقدت كل شيء إلا نفسها، وتلك كانت أكبر الخيبات.»

بعد أن طُويت صفحة المحكمة، بدأت فصولٌ أشدّ قسوة في حياة زهرة. لم تكن جدران بيتها أكثر ضيقًا من جدران المجتمع الذي رمقها بنظراتٍ مشوبةٍ بالشفقة حينًا، وبالاحتقار حينًا آخر، وكأن الطلاق وَصمة حُفرت على جبينها، لا اختيارًا فرضته خيانة وسقوط حلم.

كلّ مساء، كانت تنزع خاتم الزواج، لا لتتحرر، بل لتتلمّس فراغًا جديدًا في يدها وقلبها. صوت صرير الباب الذي أُغلق خلف زوجها ذات يوم، ظل يتردد في ذاكرتها كجملة غير مكتملة... كأنَّ شيئًا ما تُرك معلقًا، دون نهاية كريمة.

في الأسواق، في الزيارات، في حتى نظرات الجيران، كانت تشعر بأنهم يتهامسون: «هي... تلك المطلقة.» لم يكن يهمهم كيف ولماذا، كل ما كان يهمهم أنها خرجت من بيت زوجها بلا عودة. وكأن اللوم يُلقى عليها دائمًا، وكأنها لم تحاول، لم تُصبر، لم تنكسر مرارًا وهي تبتسم كي تحافظ على ما ظنّت أنه بيت.

انكمشت زهرة على ذاتها. هجرت المرآة، هجرت الكلام، حتى ضحكتها نسيتها في ركنٍ ما من الألم. بدأت تشك في نفسها، في قيمتها، وفي قدرتها على المواصلة. كيف تستعيد قوتها، وهي تُرمى بكلماتٍ مثل «فاشلة»، «ما قدرت تحافظ على بيتها»، «أكيد فيها شي خلى زوجها يتركها.»

ذات مساء، بعد يوم طويل من الهروب داخل جدران غرفتها، نظرت إلى انعكاسها في الزجاج، فلم تتعرف على نفسها. تلك التي كانت تضحك، وتبني، وتحلم، صارت ظلًا يمشي بصمت. شهورٌ مرّت، كل لحظةٍ فيها كانت تثقل كاهلها بعبءٍ جديد. لا سند، لا يد حانية، ولا حتى كلمة إنصاف.

كانت تنهار بصمت. تحاول أن تضع رأسها على الوسادة دون أن تنهار، لكن الليل كان يعرف كيف ينتزع منها بقايا قوتها. كانت تهمس في دعائها: «يا رب، لا تُبقني هكذا... نصف امرأة، نصف حياة، نصف نفس.»

كانت زهرة، ذات صباحٍ خريفيّ باهت، تقف أمام النافذة، تراقب أوراق الشجر تتساقط بصمتٍ يشبه صمتها الداخلي. لا شيء فيها كان كما كان... لا نضارتها، ولا روحها، ولا حتى دموعها التي جفّت من فرط الانهيار. لم تكن تنام، بل كانت تنطفئ. تنهض من السرير لا لأنها بخير، بل لأن العالم لا ينتظر المنكسرين.

في ذلك اليوم، وبينما كانت ترتّب أدراج خزانتها، وقعت يدها على دفتر قديم... مذكّراتها قبل الزواج، حين كانت زهرة تكتب لنفسها: «سأكون يومًا امرأة لا تكسرها الحياة، بل تصنع منها إنسانة أقوى.» قرأت الجملة مرارًا، حتى شعرت أن صوتها الداخلي - الذي خمد لوقت طويل - بدأ يهمس من جديد.

شيء ما اهتزّ في أعماقها... كيف نسيت نفسها إلى هذا الحد؟ كيف سمحت للطلاق أن يُعرّفها، ولأحاديث الناس أن تشكّلها، ولوجع الماضي أن يلتهمها؟ تلك الليلة، لم تبكِ ككل الليالي، بل أمسكت قلمًا، وبدأت تكتب:

«أنا زهرة... وها أنا أبدأ من جديد، لا كمن فقدت كل شيء، بل كمن وجدت نفسها أخيرًا وسط الركام.»

صبيحة اليوم التالي، خرجت زهرة من بيتها لأول مرة دون قناع. نظرت إلى السماء كمن عادت تتنفس، ولم تخف من نظرات أحد. ذهبت إلى أقرب مكتبة، اشترت كتبًا عن النفس، عن الشفاء، عن القوة الداخلية، وجلست في المقهى تقرأ بينها وبين نفسها...

ومن هناك، بدأت شرارة التغيير.

بينما كانت زهرة تقلّب صفحات كتابٍ بعنوان «حين تنجو من كل شيء إلا نفسك»، شعرت بشيءٍ يتحرّك فيها... كأن الكلمات كانت تُكتب خصيصًا لها. جلست في زاوية المكتبة، حيث الهدوء يعانق التفكير، تتأمل في سطورٍ تشبهها، وتُعرّي وجعها دون أن تفضحه.

أرادت أن تُغلقَ الكتاب، لكنها رفعت عينيها للحظة، فإذا ببصرِها يقع على ملصقٍ مُعلَّقٍ بجانب الرُّفوف. لم يكن بارزًا، لكنه كان هناك، كأنّ القدَر وضعه في طريقها خُفيةً: «صِراعُك مع ذاتِك... ليسَ نِهايةً... تَعالَ إلى مركزِ نَحوَ الذّات، حيثُ تبدأُ الرّحلةُ إلى داخلك.»

اسمُ المركز: «نحو الذات». كلمةٌ واحدة، لكنها اخترقت صدرَها كسَهمٍ هادئ. تلمّسته بعينيها كمَن وجَدَ نفسَه فيه. همست: «كياني... ضاع، لكن ربّما أستردّه.»

تقدّمت ببطءٍ نحوَ الملصق، وقرأتِ التفاصيل: جلساتُ دعمٍ، مجموعاتُ حوارٍ، مُستشارونَ نفسيّون، برامجُ لإعادةِ التوازن... وكلُّ سطرٍ بدا كأنّه يُخاطبُ ألمَها بصوتٍ ناعمٍ، لكن صارم.

تردَّدت، العقل يقول «لا فائدة»، أمَّا القلب، فقد تعب من الصمت.

في تلك اللحظة، لم يكن القرار سهلاً، لكنها أدركت أن الأصعب من المواجهة هو البقاء في القاع.

فتحت هاتفها، كتبت الرقم، ترددت للحظات، ثُمَّ ضغطت على زر الاتصال.

رنَّ الجرس، فرنَّ معه شيءٌ في داخلها.

كانت زَهْرَةُ تُمسِك بهاتفها كما لو أنّها تُمسِك بحافَّةِ هاوية... الإصبعُ على الرقم، لكنّ القلبَ على حافَّةِ التراجُع. جلستْ على طَرَفِ السرير، والغرفةُ من حولها تبدو ضيّقةً رغم اتّساعها، كأنّها تعكسُ ضيقَ صدرِها.

رنّةٌ... ثمّ ثانيةٌ... ثمّ ثالثة...

جاءها صوتٌ ناعمٌ من الطرفِ الآخر، دافئٌ بشكلٍ غريب:

- مرحبًا، مركزُ نحو الذات للدعمِ النفسي، كيف يمكنني مساعدتُكِ؟

بلعتْ زَهْرَةُ ريقها، ثمّ قالتْ بصوتٍ خافتٍ، كأنّها تخشى من اعترافٍ:

- أهلاً... أودُّ حجزَ موعدٍ، للمرّةِ الأولى.

- يُسعدنا ذلك، هل ترغبينَ في جلسةٍ فرديّةٍ أم في مجموعةِ دعم؟

صمتتْ زَهرَة قليلًا، ثمّ قالت:

- لا أعلم، فقط أُريد أن أتنفّس، أن أبدأ من مكانٍ لا يعرفني فيه أحد.

- إذًا نبدأ بجلسةٍ فرديّة، ثمّ نرى معًا ما يُناسبكِ، متى يُناسبكِ القدوم؟

نظرتْ زَهرَة إلى تقويمِ هاتفها، لا يوجدُ يوم مناسبٌ للحُزن، ولا يومٌ مُؤجَّلٌ للشِّفاء:

- الأربعاء القادم، صباحًا.

- تمّ تسجيلُ الموعد، أُستاذة زهرة، ننتظرُكِ في المركز، وسنبدأ معًا، خطوةً بخطوة.

أنهت المكالمة، نظرت إلى السقف، لم تبتسم، لكنها شعرت أن شيئًا في داخلها قد زُحزح قليلاً، كأن جبلاً تحرك من على صدرها، ولو ببطء. كتبت في دفترها: «أربعة أيام تفصلني عن الباب الأول... فهل أملك المفتاح؟»

{الفصل الرابع}

حين التقت الأرواح

ثلاثُ نساءٍ، ثلاثُ حكاياتٍ، وثلاثُ أرواحٍ تكسَّرت تحت وطأةِ الحياة، كلُّ واحدةٍ منهنَّ حملت ندبتَها في القلبِ قبل الجسد، وتخبَّطت في ظلالِ الأسى بحثًا عن بصيصٍ من نور.

فرَّقهنَّ الألمُ...

قمر... تلك الأمُّ التي أرعبها المرض، لا من أجلِ نفسها، بل من أجل عيونٍ صغيرةٍ تناديها: «ماما». خذلتها صحَّتُها، ثم خذلها شكلُها في المرآة، لكنَّها لم تتخلَّ عن قوَّتها.

نور... الرسَّامةُ الحالمةُ، التي سكبت ألوانَها على جدرانِ الحُلم، لتُفاجَأ بخيانةٍ من أقربِ الناس، فغدت اللوحةُ باهتةً، والمرسمُ مجرَّدَ ذكرى مؤلمة.

وزهرة... تلك التي ظنَّت أنَّ في الحبِّ نجاة، فغرست جذورَها في تُربةٍ عقيمة، وحين أينعت الحياةُ في رحِمها، خطفها حادثٌ، وخطفها بعده مَن أقسم أن يبقى.

فرَّقهنَّ الألمُ... لكنَّه ما كان يومًا نهايةَ الطريق.

إنَّه ذاك الانعطافُ الخفيُّ الذي يقود من حيث لا ندري، إلى مكانٍ آخر... إلى لقاءٍ غيرِ مُخطَّط، ودفءٍ غيرِ مُتوقَّع.

جمعتْهُنَّ الصُّدفة في مركزٍ لا يبيع الأحلام، بل يُرمِّم الأرواح.

جمعتْهُنَّ جلسةٌ ولم تكن إحداهنَّ تعلم أنَّ الأخرى تحمل وجعًا يُشبهها.

في قاعةٍ صغيرةٍ، تحت ضوءٍ هادئ، التقتِ النظراتُ لأوَّل مرة، وتكلَّمت الأرواحُ دون أن تنطق، فالألمُ لغةٌ لا تحتاج إلى ترجمة.

وفي المكان ذاته، حيث جاءت كلٌّ واحدةٍ لتحمل جُرحَها وحدها، وجدت من يُشبهها ويُشبه ندبتَها، ويُشبه محاولتها في أن تبدأ من جديد.

في صباحٍ رماديٍّ خفيف، كان مركز «نحو الذات» يرتدي هدوءَه المعتاد. الجدرانُ بلونِها التُّرابيّ، والروائحُ العطريةُ الخفيفة، وأنغامُ الموسيقى التأمُّليةُ المنخفضة، كلُّ شيءٍ يُوحي بأنَّ الداخلَ ليس كَما الخارج، وأنَّ ما يُكسَر هنا، يُرمَّم بلطف.

دخلت قمر أوَّلًا، وشالُها الرماديُّ يلتفُّ حولَ عنقِها، حيث رسمَت الحياةُ ندبتَها الأوضح. جلست في الزاوية تتأمَّل الأرضَ وتحمل في عينيها حكايةَ نجاةٍ لم تكتمل بعد.

بعد دقائق دخلت نور، تمشي بخطى متردِّدة، عيناها تائهتان، كأنَّهما تبحثان عن شيءٍ سُرق منها ذات خذلان، لم تتبادل النظراتِ مع أحد، جلست بعيدًا، لكنَّها شعرت أنَّ في الأجواءِ شيئًا يُشبهها.

ثُمَّ دخلت زهرة، خطواتُها هادئةٌ، لكنَّها تحمل خيبةَ امرأةٍ أُغلِق بابُها ذاتَ طلاق، فصارت تبحث عن مفاتيحِها في ممراتٍ مجهولة، عانقت المقعدَ بهدوء، ثم تنفَّست بعمق... ربَّما لأوَّل مرَّةٍ منذ شهور.

دخلت المعالِجةُ النفسية؛ سيِّدةٌ في عقدِها الرابع، ذاتُ ملامحَ مطمئِنَّةٍ وصوتٍ يحمل نبرةَ الحكمة. نظرت إليهنَّ وابتسمت بلطف:

- مرحبًا بكُنَّ في المركز، اليوم سأكون معكُنَّ في جلسةٍ مشتركة... الغريبُ أنَّ ملفاتِكُنَّ الثلاثة اختيرت عشوائيًّا، لكن بعد قراءتي لها، أدركت أنَّ خيوطًا خفيةً تربط بينكُنّ.

- رفعت نور رأسَها بتردُّد، والتقت عيناها بعيني قمر، ثُمَّ بعيني زهرة، لحظةٌ صامتةٌ مرَّت، لكنها كانت كافيةً لتُخبِر كلَّ واحدةٍ أنَّ مَن أمامها ليست غريبة، بل مرآةٌ أُخرى.

قالت المعالِجة:

- أحيانًا، نبحث عن العَون، فيضع اللهُ في طريقنا مَن يُشبه ألَمَنا، فقط ليقول لنا «لستنَ وحدكنَّ.»

- ساد صمتٌ آخر، صمتٌ دافئ، لا يحمل حرجًا، بل يُمهِّد لبدايةٍ جديدة.

قالت قمر بصوتٍ خافت:

أنا هنا لأتعلَّم كيف أعيشُ بندبتي، لا بها.

وأضافت نورٌ بعد لحظة:

- وأنا لأستعيد ثقتي بنفسي، بعدما أهدرتُها في حُلمٍ مشتركٍ انتهى بالخيانة.

ثمَّ تمتمت زَهْرَةُ بصوتٍ متهدِّج:

- وأنا لأبحث عن زهرةٍ أخرى داخلي، لم يقتلها الطلاق.

ابتسمت المعالِجةُ، وقالت:

- لن نبحث عن أنفسكنَّ هنا، بل سنصنعها من جديد.

جلسْنَ حولَ طاولةٍ مُستديرة، كلُّ واحدةٍ منهنّ تحملُ فنجانًا دافئًا، كأنَّ الحياةَ تمنحهنّ دفئًا صغيرًا، كاعتذارٍ مؤقّتٍ عمّا فعلتْهُ بهنّ.

خيّمَ صمتٌ خفيفٌ على المكان، لكنه لم يكن صمتًا باردًا، بل صمتُ مَن ينتظرُ أن يسمعَ صوتَه لأوّلِ مرّةٍ بصدقٍ.

وقفتِ المعالجةُ، د. ناديا، ووضعتْ كفّيها برفقٍ على الطاولة، ثمّ قالتْ بصوتٍ دافئ:

- أن تعترفَ المرأةُ بألمِها ليس ضعفًا، بل هو ذروةُ قوّتِها؛ لذا، لن أسألكنَّ مَن أنتنّ، بل سأطلبُ من كلّ واحدةٍ أن تُجيب، ما الذي ضاع منها، وهي تحاول أن تكونَ كما يريدُ الآخرون؟

نظرتْ إليهنّ، ثمّ أخرجتْ ورقةً صغيرةً من دفترها، وقرأتْ منها بصوتٍ يحملُ نغمةَ رجاء:

- لا بأسَ أن تخسري بعضَ الأشخاصِ، إنْ كانَ الثمنُ هو أنْ لا تخسري نفسَكِ.

كانت قمر أوّلَ مَن كسَرَ الصَّمت، نظرتْ إلى يديها المرتجفتين، وقالت:

- ضعتُ حينَ ظننتُ أنَّ دوري الوحيدَ هو أن أكونَ الأمَّ القويّةَ دومًا، نسيتُ أن أكونَ (أنا)، صدّقتُ أن الحبَّ يُقاسُ بما نُعطي، لا بما نشعر، حتّى صحّتي صارتْ ثمنًا لصمتي.

وضعت د. ناديا يدَها على قلبِها وقالتْ بلطف:

- أحيانًا، أقسى أنواعِ الإنكار، هو إنكارُ الألم ذاته، لكنّنا لا نُشفى ما لمْ نعترفْ بنزفِنا.

ثُمَّ نظرتْ إلى نور، فرفعتْ هذه الأخيرةُ عينيها بتردّد، وقالت:

- أنا لم أخسرْ مرسمي، بل خُدشتْ روحي، كانَ حُلمًا وُلدتُ به، أعددتُهُ مع ألاء كأنّنا نزرعُ طفلًا. ثمّ سرقتني وتركتْني أغرقُ في الديونِ والخذلانِ... لم أفهمْ يومًا، كيف يمكنُ لأقربِ الناسِ أن يطعنَك، ثُمَّ يمضي دون أن يلتفت!

قالت د. ناديا بصوتٍ حازمٍ يحملُ الحنان:

- ليستْ كلّ الخياناتِ عشقًا، بعضُها خيانةُ ثقة وهي الأشدُّ وجعًا.

وأخيرًا، كانت زهرة، تردّدت قليلًا، ثمّ تمتمت:

- أنا خُدعتُ بالوهم، ظننتُ أن الحبَّ يُصلحُ ما كُسر، تمسّكتُ بزواجٍ كان يحتضر، ثمّ جاء الحملُ كضوءٍ صغير، صدّقتُ أنه سيجمعُنا، لكنّني فقدتُ الجنين وفقدتُ بعده كلَّ شيء، حتّى كرامتي... حين قال لي: «كلُّ يبدأُ من جديدٍ على طريقه.»

ارتجفَ صوتُها، فانحنت د. ناديا، وقالت:

- أحيانًا لا نفقدُ أشخاصًا، بل نفقدُ أنفسَنا معهم، ونقضي سنواتٍ بحثًا عن الطريق من جديد.

تأمّلتِ النساءُ الثلاثُ في صمت، شعرتْ كلٌّ منهنّ كأنّ الكلماتِ كُتبت خصّيصًا لها، لم يُطلب منهنّ أن يقمن، أو أن يبتسمن، أو يتفاءلن... فقط، سُمِحَ لهنّ أن يتألّمن.

ثمّ كتبتْ د. ناديا على السبورة جملةً كبيرة:

«حين نتوقّفين عن الركضِ وراءَ مَن لا يرى قيمتَكِ... تبدأُ رحلتُكِ نحوَ نفسِك.»

سادتْ لحظةُ صمتٍ أخرى، لكنها كانت دافئة، كأنّ أحدًا قالَ أخيرًا ما لم يستطعن قولَه منذ زمنٍ بعيد.

ثمّ التفتت د. ناديا إليهنّ، وقالت بهدوء:

- الآن أريدُ من كلّ واحدةٍ أن تُجيب، بصدقٍ دونَ تبرير، ما هو الثمنُ الذي دفعتِه لتكوني كما يُريدُ غيرُكِ؟

نظرت قمر إلى الأرض. كانت الكلمات تنقرُ صدرَها، كأنها تطرقُ بابًا ظلَّ موصدًا طويلًا:

-خُنقتُ بصمتي. كنتُ أبتسمُ في وجهِ الوجع، حتّى صارَ الألمُ صديقي الصامت، لم أكن أقول (لا) حتى حين كان جسدي يصرخُ بها، ظننتُ

أن التضحيةَ حبّ، والإنكارَ قوّة... والآن، كلُّ ما تبقّى لي جسدٌ يحملُ ندبة، وقلبٌ متعبٌ من الاحتمال.

قاطعتْها نور بهمسٍ عفوي:

- أشعرُ بكِ جدًّا.

ابتسمت قمر بحزن، وتابعت:

- كنتُ أخشى أن ينهارَ كلّ شيء، إن عبّرتُ عمّا أحتاجه، رتّبتُ أولويَّاتي على مقاسِ الآخرين، حتى نسيتُ مقاسي أنا.

نظرتْ إليها د. ناديا وقالت بلطفٍ عميق:

- نحن لا نُخلقُ لنسعدَ الجميع، لا أحد ينجو من الإنهاك وهو يعيشُ لإرضاء الكلّ، قمر... حانَ وقتكِ.

ثمّ التفتت إلى نور:

- وأنتِ، نور... ما الثمن؟

كانت نور تشدّ طرفَ كمّها بين أصابعها، ثمّ قالت بصوتٍ هادئٍ تخنقُه العبرة:

- ثمنُ سذاجتي، كنتُ أُشاركُ الحلم وأُخفي الخوف، منحتُ ألاء كلَّ المساحات وكلّ الثقة، لأنني اعتقدتُ أن الحبَّ والوفاء وحدهما يكفيان، تنازلتُ عن حقي في المعرفة، فقط لأنّي لا أحبُّ المواجهات، وكلّ مرّة كانت تبتعدُ فيها، كنتُ أقول لنفسي: (هي متعبة... مشغولة... ستعود).

سألتها د. ناديا برفق:

- لكنها لم تعد؟

- لا، بل ابتعدت أكثر، ثمّ ألقت بكلّ شيءٍ عليّ، كأنَّني وحدي مَن كانت تحلم.

سادتْ لحظةُ صمت، ثُمَّ قالت د. ناديا:

الثقة ليست هبة بل مسؤولية، وما حدث، يا نور لم يكن عنكِ، بل عنها، لكن نضجَكِ أن تختاري ألّا تحملي وزرَ خيانتها.

تنهدت نور، وكأنّ الجملةَ انتزعت حملًا من صدرها، ثمّ التفتت الأنظار إلى زهرة.

أغمضت زهرة عينيها، كأنّها تعودُ إلى ذاك اليوم... يومَ سقط كلُّ شيء:

- الثمنُ كان... أنا.

فتحت عينيها، وقالت:

- أقنعتُ نفسي أنّني لستُ كافية فكنتُ أتنازلُ أكثر، وأسكتُ أكثر، وأُحبّ أكثر، وأغفرُ أكثر. أردتُ لهذا الزواجِ أن ينجو... أن ينجح بأيّ ثمن، لكن الثمنَ كان ثقلي النفسي، وحدتي، وطفلي... حين فقدتُه، شعرتُ أنني فقدتُ المعنى لكلّ شيء، لكنه لم يهتم، خرج من العلاقة كما يخرج أحدهم من بابٍ لا يعنيه.

همست نور:

- آلمتني جملتُكِ.

ردّت زهرة:

- لأنَّها كانت حياتي.

ابتسمت د. ناديا بحزن، وقالت:

- كلُّ واحدةٍ منكنّ جاءتْ محمّلةً بوجعها، لكنها ما زالت واقفة، وهذا بحدِّ ذاته شجاعة... اسمعني جيّدًا، أن تُكسري، لا يعني أنكِ لا تصلحين، بل يعني أنكِ الآن تملكين شقوقًا يمرّ منها النور.

ثُمَّ كتبت على اللّوح:

توقّفي عن لومِ نفسِكِ، فالذي أطفأكِ، ليس خطأكِ.

في نهاية الجلسة، نهضت د. ناديا بخطى هادئة، وأطفأت نصف أضواء الغرفة، تاركة ضوءًا دافئًا يتسلّل من نافذة الستارة نصف المغلقة.

قالت بصوتٍ منخفض لكنه واضح:

- الآن، سنجري تمرينًا بسيطًا، لكنَّه قد يُفاجئكنّ بمدى صدقه.

ثُمَّ وزّعت عليهن أوراقًا صغيرة بيضاء، وطلبت منهن:

- اكتبي رسالة لنفسك القديمة، تلك التي كانت تُرضي الجميع وتخاف من الرفض وتظن أن الحب يعني التنازل... اكتبي لها كما لو كنتِ تعانقينها وتخبرينها بالحقيقة التي غابت عنها.

ساد صمت ثقيل، سوى صوت أنفاس متقطعة وأقلام تلامس الورق.

قمر كانت يدُها ترتجف وهي تكتب: « كنتِ شُجاعة أكثرَ ممّا تَعلمين، لكنّكِ تَعبتِ من الصّمت، سامَحتِ الجميع ولم تُسامحي نفسَكِ لأنّكِ لم تَنتبهي لها... أعدُكِ أن لا أعودَ لِأتخلّى عنّي، لأجلكِ.»

نور كتبت بحروفٍ دامعة: « أعلمُ كم كنتِ تَشتاقين لاحتضانٍ، ولصوتٍ يُخبركِ (أنتِ لا تُقاسين بالعطاء) أعتذرُ لأنّي لم أحْمِكِ منهم، ومن الآن، سأكون أنا كَتفكِ.»

زَهرة وضعت القلم قليلًا، ثمّ كتبت: «يا زَهرَتي الصغيرة، لا أحدَ يستحقُّ أن تنكسري لأجلِه بهذا الشكل... كنتِ تُحاولين بناءَ حياةٍ فوق الحُطام، آسفةٌ لأنّي لم أُخرجكِ من الأنقاضِ باكرًا.»

بعد لحظات، قالت الدكتورة ناديا:

- اطوينَ الورقة واحتفظنَ بها، هذه ليست ورقةً عادية، بل بدايةُ استعادةِ ذواتكنّ.

ثمّ ختمت الجلسة بابتسامة:

في اللقاءِ القادم سنكتب رسالةً جديدة، لكن هذه المرَّة لأنفسكنّ التي وُلِدت من النّور، لا من النَّدم... أنتنَّ لستنَ هنا لأنكنّ ضعيفات، بل لأنكنّ تملكنَ شجاعةَ الاعتراف بأنّ شيئًا ما في الداخل يُؤلم، وهذه أولى بوّابات التعافي.

أخرجت ورقةً صغيرة، وكتبت عليها بخطٍّ واضح:

- كُلُّ ما لم يُعبَّر عنه يُكدَّس في الداخل.

ثم تابعت وهي تنظر إليهنّ واحدةً تلو الأخرى:

في المرة القادمة، سنَحفِرُ أعمق، لكن اليوم، اكتفينَ بهذا الإنجاز، أنكنّ جلستنَ، وتكلّمنَ، وبكيتنَ، أو حتى صمتنَ... لكنكنّ لم تهربن.

كان الهواء خارج غرفة الجلسة أخفّ، لكنّ شيئًا ثقيلاً بقي عالقًا في صدورهنّ، كما لو أنّ الجروحَ القديمةَ قد تنفّست أخيرًا... وبدأت تصرخ.

كانت زهرة أوّل مَن فتحت باب الغرفة، خطواتُها متردّدة كمن خرجَ للتوّ من غرفةِ جراحةٍ داخلية... وضعت يدَها على قلبِها، ليس خوفًا، بل امتنانًا لأنّ هذا القلب ما زال ينبض رغم كلّ شيء.

لحِقت بها نور، تمسك بورقتها المطويّة بشدة، وكأنّها تحتضن طفلتها الجريحة التي كتبت لها رسالةَ وداع. نظرت إلى الأرض، ثمّ إلى السماء، كأنّها تُحاول تصديق أنّ ما بدأ هنا، قد لا يكون مجرّد دعمٍ نفسيّ، بل ولادةً حقيقيَّة.

أمَّا قمر، فقد خرجت أخيرًا، وجهُها شاحبٌ قليلًا، لكن في عينيها ومضةُ دفءٍ لم تكن هناك من قبل. كانت تمشي ببطء، تتفحّص الوجوهَ حولها، ثمّ رمقت نور وزهرة بنظرةٍ صامتة، فيها شيءٌ من التواطؤ الجميل.

لم يتكلّمن... ليس بعد.

لكن بينهنّ وميضٌ خفيّ: «نحن هنا، كلّ واحدةٍ تحملُ ندبة، وكلّ واحدةٍ تحملُ بَذرة.»

توقّفت زهرة فجأةً أمام مقعدٍ خشبيّ في باحة المركز، جلست بصمت، تبعتها نور وقمر.

قالت نور بصوتٍ بالكاد يُسمع:

ما رأيكُنّ أن نلتقي هنا بعد كلّ جلسة؟

نظرت زهرة إلى قمر، التي أومأت برأسها موافقة:

- رُبّما نحتاج إلى بعضنا أكثر ممّا نظنّ.

ابتسمت زهرة، لأوّل مرةٍ منذ زمن، وقالت:

- في هذه الحرب مع النفس، لا بأسَ أن نُمسك الأيدي.

صمتٌ آخر، لكنّه هذه المرة كان سلامًا.

بعد أسبوع من الجلسة الأولى...

الساعة تشير إلى الرابعة مساءً، والسماء خلف النوافذ تلبس لونًا رماديًّا يُشبه أرواحَ الحاضرات. بدأت الجلسةُ الثانية، وفي الغرفة نفسها جلسنَ الثلاث: قمر، نور، وزهرة، لكن هذه المرة بشيءٍ من الألفة، كأنهنّ اجتزْنَ خطوةً أولى نحو بعضهنّ، ونحو أنفسهنّ.

دخلت المعالجةُ بابتسامةٍ هادئة، تحمل في يدها دفترًا جلديًّا صغيرًا، وعيونُها تُجيد النظرَ لما وراء الملامح.

جلست قبالتهنّ، ثم قالت:

- أريد أن نبدأ اليوم من نقطةٍ موجعة، لكنّها ضروريّة «الخُذلان».

كلُّ واحدةٍ منكنّ مرّت به، لكن ماذا فعل بكنّ؟ مَن أصبحتن بعده؟
ساد صمتٌ ثقيل، كانت الكلماتُ الكبيرةُ مُخيفة، لأنّها حين تخرج، تُشبه الخدوشَ التي لم تندمل بعد.
نور عقدت يديها في حجرها، وقالت:
- كنتُ أظنُّ أنّني قويّة، إلى أن وقفتُ وحدي أمام جبلٍ من الدُّيون، تركتني صديقتي هناك وذهبت لتعيش نجاحها دون أن تلتفت خلفها... الخُذلان لم يكسِرني فقط، بل جَرّدني من ثقتي بكلّ أحد، حتى بنفسي.
ثُمَّ نظرت زهرة إلى الأرض، كأنّها تُفتش عن كلماتها بين البلاط:
- الخُذلان ليس حين يتركك أحدهم، بل حين يتقبّل أن يتركك بسهولة... ظننتُ أنَّ ابني سينقذ زواجي، لكنَّه لم يُنقذ حتى وجودي... بعد الطّلاق، ظللت أُعاتب نفسي على كل لحظة كنتُ فيها طيّعة... مخلصة... وخرساء.
أغمضت المعالجةُ عينيها لثانية، ثم قالت:
- أريد من كلّ واحدةٍ منكنّ أن تكتب الليلةَ رسالة، لكن ليست للذي خذلكِ، بل لنفسكِ التي صمدت رغم كلّ شيء... سنقرأها الأسبوع المقبل، إن استطعنا.
مالت المعالجةُ بنظرها إلى قمر، وسألتها:
- ما الذي يُخيفكِ يا قمر؟

صمتت طويلًا، ثمّ قالت بصوتٍ لا يُشبه نبرة الأم التي يعرفها الجميع:

- أنا لا أحتمل نفسي حين يُخيفني كلُّ شيء، حين أشعر أنّني هشّة إلى الحدّ الذي يمكن أن أتكسر فيه من كلمة، من موقف أو حتَّى من فكرة تتسلّل إلى رأسي ليلًا ولا تتركني أنام.

نظرت إلى الأرض، ثم تابعت:

- أنا مررتُ بتجربةٍ قاسية، نعم... لكن ما أخافني أكثر هو ما اكتشفته بعدها، أنّني أعيش منذ زمن، لا كقويّة كما يظنُّ من حولي، بل كمن ترتدي قشرةً من الشَّجاعة، بينما تتآكل روحُها من الداخل... جئتُ لأتعلّم كيف أهدأ، لا لأُشفى من مرضٍ فقط، بل من أفكاري التي تُرهقني، من قلقي الذي لا يرحمني، من نفسي التي لا تتوقّف عن لَوم نفسها، وتوقّع الأسوأ دائمًا.

ساد صمتٌ خفيف في القاعة، ثُمَّ ابتسمت المعالجة وقالت:

- أنتِ لم تأتِ متأخّرة يا قمر، بل أتيتِ حين بدأتِ تُصغين لصوتكِ الحقيقي لا الخارجي ولا الذي يُرضي الناس، بل صوتكِ العميق الذي يقول «كفى».

رفعت قمر عينيها، وفي داخلهما دمعة، لا من وجع، بل من ارتياحٍ خجول، كأنّها ولأوّل مرة، شعرت أنّ ما تشعر به ليس ضعفًا، بل بداية وعي.

قالت المعالجةُ وهي تتّجه نحو النافذة بابتسامةٍ لطيفة:

- دعونا نتحدّث عن صراعنا مع أنفسنا، ما الذي يُخيفكنّ أكثر؟ مواجهة ما بداخلنا، أم قبول حقيقة أنّنا رُبَّما لم نكن كما أردنا أن نكون؟

زهرة كانت أول مَن تجرّأت على الحديث، لكن صوتها كان مليئًا بالثقل:

- أكثر ما يُخيفني هو أنني أفقد نفسي في كلّ مرةٍ أتعلّق فيها بشخصٍ آخر... كنتُ أظنّ أنّ الحبّ سيحميني، لكنني اكتشفت أنه جعلني أخسر نفسي؛ هل أستطيع أن أكون زهرة التي أعرفها، دون أن أحتاج لأن أُحبّ أحدًا؟ هل يمكنني أن أعيش دون أن أرى نفسي من خلال عيون الآخرين؟

نظرت المعالجة إليها بابتسامةٍ هادئة، ثمّ قالت:

- أنتِ لستِ وحدكِ في هذا الصراع يا زهرة، لكن دعيني أطرح عليكِ سؤالًا:

لماذا تظنين أنّ وجودكِ في حياة أحدهم يُعرّفكِ، أكثر من وجودكِ في حياتكِ أنتِ؟

أغلقت زهرة عينيها للحظة، كما لو كانت تسأل نفسها السؤال.

كانت نور تراقب من بعيد وهي تشعر بكلّ كلمة، لكن لم تستطع أن تقول شيئًا على الفور، وبعد لحظات قالت بصوت منخفض:

- أعتقد أنّني أعيش في خوفٍ دائم... خوفٍ من الفشل، ومن التوقّعات التي بنيتُها عن نفسي... كنتُ دائمًا أظنّ أنّني قادرة على أن أكون فنانة عظيمة، وأن أخلق شيئًا لا يُنسى، لكنّ خيانة أصدقائي، ووحدتي،

جعلتني أشكّ في قدرتي على فعل أيّ شيء، هل أستطيع أن أكون كما حلمت؟ هل يُسمَح لي بذلك؟

ثُمَّ أضافت بصوت مهزوز:

- أشعر وكأنّني محاصرة داخل دائرة لا أستطيع الخروج منها، الخوف من الفشل والخذلان أصبح جزءًا من نفسي.

قالت المُعالجة بصوتٍ هادئٍ لكن حازم:

- أنتنّ هنا الآن، تخضن هذا الصراع، وهذه أول خطوة نحو النجاح الحقيقي، القبول بذواتكنّ كما أنتنّ في هذه اللحظة... الخوف لن يختفي، لكن يمكنكنّ تعلُّم كيفية التعامل معه، أنتنّ لستنَ ضحايا للماضي، ولا للخذلان، ولا لما يظنه الآخرون عنكنّ.

كانت قمر جالسة بهدوء، تحاول الكلام، لكن الكلمات بدت عاجزة عن التعبير.

بعد لحظات، قالت بصوتٍ تحاول إخفاء الألم فيه:

- أظنّني فقدت شيئًا كبيرًا من نفسي حين بدأت أعيش من أجل الآخرين، كنتُ أظن أنني أعيش حياةً متوازنة، لكنني اكتشفت أنني كنت في سباقٍ دائمٍ لتحقيق توقّعات الآخرين، من دون أن أعرف ما أريده أنا... أريد أن أتعرَّف على نفسي أكثر، لكنني أخشى أن يكون الوقت قد فات... هل يمكنني أن أعود إلى ذاتي؟

نظرت إليها المعالجة بابتسامة ناعمة، وقالت:

- الوقت لم يضع يا قمر، بل كانت مرحلةً تعلّمتِ فيها كيف تصِلين إلى هذا المكان، استرجاع ذاتكِ خيار، ولن يكون بالصعوبة التي تتخيّلينها... أنتِ من يصنع الطريق، ولا شيء يستحق الخوف أكثر من الخوف نفسه.

سادت لحظة صمت، كأن المعالجة كانت تنتظر أن تهدأ أفكارهنّ.

قالت زهرة بعد برهة:

- أعتقد أنني بدأت أفهم أن عليّ أن أعيش من أجل نفسي أولًا، ثم أقرّر إن كنتُ أستطيع أن أُحبّ من جديد، لكن دون أن أُغرق نفسي في آخرين يسرقون مني ما تبقّى من روحي.

أضافت نور بصوتٍ صادق:

- وأنا أيضًا سأتعلَّم أن أكون فنَّانة، لا ليراني الآخرون، بل لأرى نفسي في فني أولًا.

ابتسمت المعالجة وقالت:

كلّ واحدة منكنّ تحمل قوةً عظيمة، وستدركها حين تعيد النظر إلى ذاتها بصدقٍ ومن دون تشويش... لا شيء قادر على إنكار ما صنعت أيديكنّ، أنتنّ الآن تُعدن بناء الذات، وها أنتنّ في بداية الطريق... تنضجن وتنمون.

ساد صمتٌ مهيب، لم يكن ثقيلًا، بل كصمت الشروق الخافت، يسبق انبثاق النور في الأرواح.

نظرت المعالجة إلى الوجوه الثلاثة أمامها، وكأنها ترى فيهنّ وجوه آلاف النساء، ثم قالت بصوتٍ واثقٍ ولطيف:

- ثلاثكنّ جئتنَ تحملن وجعًا يختلف في شكله، لكن يتشابه في عمقه، كأنّ الحياة قد اختارتكنّ لا لتكسِر، بل لتوقِظ... كل واحدة منكنّ كانت تظن أن الخوف عيب، أن التعلّق ضعف، أنَّ الانكسار نهاية، لكن كلّ ما فيكنّ كان إنسانًا حقيقيًّا يحاول النجاة.

ثُمَّ توجهت بنظرها إلى قمر وقالت:

- قمر... الخوف الذي تسكنين فيه ليس ضعفًا، بل هو صدى لحساسيتكِ، لرهافة قلبكِ الذي يُحبّ بصدق ويخشى الفقد، لكنكِ لا يمكنكِ أن تعيشي طوال حياتكِ متوقعةً الأسوأ، فتمنعي عن نفسكِ أبسط لحظات الطمأنينة... العالم ليس ساحة معركة دائمًا، أحيانًا هو حضنٌ دافئ، لكنَّكِ بحاجة أوَّلًا أن تكوني ذلك الحضن لنفسك، ندبتكِ على رقبتكِ ليست بشعة، البشع هو أن تظنّي أنها سرقت منكِ أنوثتكِ أو قيمتكِ.

أنتِ أكبر من أثرٍ جرّاحي... أنتِ امرأةٌ تُحارِب، وهذا وحده كافٍ لتكوني جميلةً بكل ما فيكِ.

ثُمَّ التفتت إلى نور، وقالت:

- نور... الخذلان لا يعني أنَّكِ أخطأتِ، بل أنَّكِ منحتِ الثقة لقلبٍ لم يكن أهلًا لها، وهذا لا ينتقص من صفائكِ، بل يُظهر معدن روحكِ... الثقة

بالنفس لا تُبنى على نجاحاتٍ خارجية، بل على نهوضكِ بعد كل خذلان، لا تُشيّدي ذاتكِ من كلمات الناس، بل من حقيقةٍ داخلكِ، من صوتٍ في داخلكِ يقول «أنا أستحق أن أُحَب، حتى لو خانوني».

ثُمَّ نظرت إلى زهرة بعينٍ تعرف الألم، وقالت:

- زهرة... الطَّلاق ليس فشلًا، أن تنفصلي عن من لا يراكِ، هو أوَّل خطوة نحو رؤيتكِ لذاتكِ... تجاوز الخذلان ليس سهلًا، ولا الصَّمت أمام أصابع المجتمع، لكن ما أجمل أن تصمتي وأنتِ تبنين نفسكِ من جديد، لبنةً لبنة، طفلكِ الذي رحل لم يأخذكِ معه، بل ترك لكِ شيئًا أغلى، رسالة أن الحياة لا تختصر في رجل، ولا في زواج، بل فيكِ أنتِ، لا تنسي نفسكِ في محاولة إرضاء الآخرين، يكفيكِ أن ترضي الله، وترضي المرأة التي تسكن داخلكِ، وتنتظر أن تسمعي صوتها.

ثُمَّ جمعت كفيها ببطء، وقالت:

أنتنّ لستنَ مُحطّمات، أنتنّ قيد التَّرميم، والجميل في التَّرميم أنه لا يُعيدكِ كما كنتِ، بل يجعلكِ أقوى، أعمق، وأصفى.

رفعت عينيها نحو النَّافذة، ثُمَّ تابعت:

في الأسبوع القادم لا أريدكنّ أن تكتبن كيف كانت أيامكنّ، بل أريدكنّ أن تكتشفن من أنتنّ بعد كلّ ما مررتنَّ به؟ من أنتنّ، بعيدًا عن خوفكنّ،

بعيدًا عن جراحكنّ، بعيدًا عن من خذلكنّ؟ لأنَّ أوَّل خُطوة في طريق الشِّفاء هي أن تجد كلّ واحدةٍ منكنّ تلك المرأة القويَّة في داخلها، وتبدأ بمحاورتها، لا تجاهلها.

ساد الصَّمت مرَّة أخرى، لكنه كان هذه المرة صمتًا دافئًا... كصمت امرأة بدأت تلمس النور في قلبها لأول مرة منذ زمن طويل.

خرجت النساء الثلاث من قاعة الجلسة الثانية بخطى بطيئة، كأن أقدامهنّ تتردد في مغادرة المكان الذي شهد أول تلاقٍ حقيقي مع ذواتهنّ.

كانت الشمس تميل نحو الغروب، تُلوِّن السماء بدرجاتٍ من العنبر والورد، كأنها تحتفل معهنّ ببدايةٍ جديدة لا تُقال بالكلمات.

كانت قمر تمسك بحقيبتها وتُخفض رأسها قليلًا، لكن ملامحها لم تكن مثقلة هذه المرة، كانت تُردّد في ذهنها جملة من كلمات المعالجة، كأنها ترنيمة: «لا يمكنكِ أن تعيشي طوال العمر نتوقعين الأسوأ...»

كانت زهرة تسير إلى جانبها، تتأمل أشجار الحديقة الصغيرة التي يمررن بها، وكأنها منذ زمن لم تنتبه إلى هذا الجمال البسيط.

أمَّا نور، فكانت تُسرّح نظرها في الأفق، ثم التفتت إليهما بترددٍ دافئ، وقالت:

- هل... هل ترغبان في كوب قهوة قبل أن نغادر؟

نظرت إليها قمر بدهشةٍ خفيفة، ثم ابتسمت للمرّة الأولى دون أن تفكر كيف تبدو ابتسامتها.

أومأت زهرة برأسها، وقالت بهدوء:

- أظنّني بحاجة إلى الحديث أكثر... لكن هذه المرة خارج الجلسة.

جلسن في مقهى قريب من المركز، لا يملكه سوى الصمت والدفء وشيء من الطمأنينة التي بدأت تزهر بينهنّ.

لم يتحدّثن كثيرًا في البداية، لكنّ كُلّ واحدةٍ منهنّ شعرت بشيءٍ مختلف... شعرت أنّ الأرواح التي جلست إلى جوارها ليست غريبة.

إنهنّ نساءٌ مررنَ بالريح ذاتها، وربّما تكسّرن بالطريقةِ نفسها، لكنّهنّ اليوم يجلسن في المكانِ نفسه، على الطاولةِ ذاتها، لا كمنكسِرات... بل كناجيات.

قالت قمر وهي تُمسك كوبها بكلتا يديها الدافئتين:

- لأوّلِ مرّة، شعرتُ أنّني لا أحتاج أن أكون قويّة طوال الوقت...

ردّت نور بابتسامةٍ خافتة:

- وأنا لأوّلِ مرّة، شعرتُ أنّ أحدًا فهمَ صمتي دون أن أُضطرّ لشرحه.

أمّا زهرة، فقد نظرت إليهما بعينٍ ممتلئة وقالت:

- ربّما كان علينا أن ننكسر حتى نعرف من نكون حقًّا.

ضحكنَ ضحكةً خفيفة، تلك التي لا تأتي من نكتة، بل من اعترافٍ داخلي بأنّ القادم قد يكون أخفّ لأنّ أحدًا ما يسير إلى جانبك.

وهكذا، غادرت كلّ واحدةٍ منهنّ المقهى، لا تحمل فقط حقيبتها، بل خيطًا رفيعًا من علاقةٍ جديدة، علاقةٍ لا تربطها مصلحة ولا مصادفة، بل ذلك النوع النادر من الألفة... حين تلتقي أرواحٌ كانت تسير على الحافة، ثمّ قرّرت أن تتعافى معًا.

***

بعد أسبوع، وفي صباحٍ هادئ لا يشبه الصباحات السابقة، وصلت قمر ونور وزهرة إلى المركز، وقد بدا على وجوههنّ شيءٌ مختلف... شيءٌ لا يُسمّى بسهولة، لكنّه يُرى.

كانت خطواتهنّ أكثرَ توازنًا، وأعينهنّ أقلّ شرودًا، وقلوبهنّ، رغم ما تحمله، تشبه صفحةَ ماءٍ بدأت تستقرّ بعد عاصفة.

لم تكن الجلسةُ الثالثة موعدًا عابرًا، بل كانت انعطافة، ففي المرّتين السابقتين جئن مثقلاتٍ بما فُرض عليهنّ من الخارج؛ خيانة، فقد، خذلان، خوف... أمّا اليوم، فقد دخلن وهنّ يحملن سؤالًا أعمق:

«ماذا نفعل بما تبقّى فينا بعد كلّ ما مضى؟»

المعالجة كانت في انتظارهنّ بابتسامتها المألوفة، لا تسأل، بل تُرحّب... كأنّها تعرف أنّ التغيير لا يُنتزع بالأسئلة، بل بالحضور.

في تلك الغرفة البيضاء، حيث التقين للمرّة الأولى منكسرات، عدن اليوم بالأرواح نفسها... لكن بنبضٍ مختلف.

كانت الجلسة الثالثة بوّابةً إلى الداخل... لا نحو الجرح، بل نحو ما بعده.
بوّابةً للسعي لا للندم، للتسامح لا للعتاب، وللبدء لا للتوقّف.
الغرفة كانت مغمورةً بضوءٍ دافئ، يتسلّل من النوافذ الواسعة، ويغسل الجدران بلونٍ يليق بالسلام.
ثلاثة مقاعد قريبة، جلست عليها قمر ونور وزهرة، ووجوههنّ تُشعّ بشيءٍ لم يكن حاضرًا في الجلستين السابقتين: إشراقٌ خافت... لكنه حقيقي.
دخلت المعالجة، وابتسامتها هذه المرّة كانت أوسع، وكأنّها لاحظت ما لم يُقال بعد.
قالت وهي تجلس وتفتح مفكّرتها:
- أرى اليوم قاماتٍ أكثرَ اعتدالًا، وعيونًا أقلّ انكسارًا... كيفَ تشعرن؟
تنفّست قمر بعمق ثُمَّ قالت بصوتٍ راسخ:
- لأوّلِ مرّة منذ وقتٍ طويل، نظرتُ إلى المرآة هذا الصباح، لم أُسرّح حجابي لأُخفي ندبتي، بل فقط رتّبته لأنّني أحب أن أبدو مرتّبة، ليست الندبة من تُحدّدني.
ابتسمت المعالجة بتقدير، ثم التفتت إلى نور، التي لمعت عيناها وقالت:
- ربّما خسرتُ المرسم، وربّما لم أعد أثق بأحدٍ بسهولة، لكنّني بدأت أرسم من جديد، لن أسمح لخيبةٍ أن تطفئ ما وهبني الله إيّاه.

أنا لا زلتُ أنا، وأستحقّ أن أبدأ من جديد.

قالت زهرة، وصوتها يحمل صلابةً غريبة على ملامحها الرقيقة:

- تردّدتُ كثيرًا في الحضور اليوم، ظننتُ أنّني سأنكسر مرة أخرى لكنّني لم أنكسر، بل شعرتُ أنّني أتعافى. لم أعُد أرى نفسي كضحية طلاق، بل كـامرأةٍ خرجت من حرب... وما زالت واقفة.

صمتت المعالجة قليلًا، ثُمَّ قالت:

- أن تشهد النَّفسُ على نفسها وهي تُشفى، لَهُوَ من أعظمِ المعجزات... أُريد أن أُعطيكنّ تمرينًا صغيرًا اليوم، تخيّلن أن نسختكنّ القديمة جالسةٌ هنا معكن، ماذا ستقلن لها؟

نظرت قمر إلى الأرض، ثمّ همست:

- سأقول لها: كُفّي عن إرضاء الجميع، لا أحد يستحق أن تنسي نفسكِ لأجله.

نور قالت:

- سأخبرها: لا تعتمدي على أحدٍ ليمنحكِ قيمتك، أنتِ قيمتك فيكِ.

زهرة قالت ودموعها بدأت تتجمّع:

- سأقول لها: سامحيه، ليس لأنّه يستحق، بل لأنّكِ أنتِ تستحقين السلام.

في تلك اللحظة، لم يكن في الغرفة صوتٌ سوى نبضِ الصدق، وارتعاشِ قلوبٍ تتطهّر من أثقالها شيئًا فشيئًا.

كانت هذه الجلسةُ بدايةَ التحوّلِ الحقيقي، إذ بدأنَ كلُّ واحدةٍ ترى في الأخرى مرآةً لرحلتها، وأملًا لوجهتها القادمة.

أغلقت المعالجة دفترها، ثمّ نظرت إليهنّ بحنوّ، وبدأت تتحدث بصوتٍ هادئ، لكنّه يحمل قوّةً دفينة:

- كلّ ما تشعرن به الآن، من وهنٍ أو قوّة، من خيبةٍ أو أمل... ليس إلّا انعكاسًا لعلاقتكنّ بأنفسكن.

نحن لا نُجرَح حين يخذلنا أحد، بل حين نكون قد سلّمناه مفاتيحنا.

أوّل خطوةٍ للشفاء، ليست فهمَ الآخرين، بل أن نفهم: «من أنا؟ وماذا أستحقّ؟»

أريد أن أخبركن اليوم عن خمسة أوجه للعلاقة بالنفس، علّها تكون نقطة تحول حقيقية.»

نتوقف لحظة، ثم تبدأ بأول محور:

1. التعامل مع الذات:

- «لا تكوني قاسية على نفسك كما لو أنكِ خصمها.

من يسقط، لا يُوبَّخ، بل يُواسى، ويُرفع برفق.

راقبي حديثكِ الداخلي... هل تُحبين من تتحدثين إليها بداخلك؟

إن لم تكن كلماتكِ حنونًا لنفسكِ، كيف تتوقعين أن تعاملكِ الحياة برحمة؟»

2. الثقة الزائدة أو المنقوصة:

- «الثقة لا تعني أنكِ لا تخافين، بل أنكِ تستمرين رغم خوفك.

الثقة الحقيقية لا تُبنى على كمال الشكل أو رضا الناس، بل على احترامكِ لذاتك حين تختارين الصحّ لا السهل.

لا تكبّري نفسكِ فوق الناس، ولا تصغّريها دونهم... كوني فقط مساوية لقيمتك الحقيقية.»

3. العلاقات مع الناس:

- «لا أحد ملزَم بأن يفهمكِ، أو يُنقذكِ، أو يُرضيكِ.

التعلّق يجعلنا عبيدًا، والاستغناء لا يعني القسوة بل الحريّة.

العلاقات الصحية تُبنى على وضوح، وكرامة، وحدود. من يُحبكِ، سيحترم حدودكِ.»

4. إرضاء الآخرين:

- «أن تعيشي حياتكِ لتُرضي غيركِ، هو أن تنسي نفسكِ على عتبة الانتظار.

لا بأس أن يُخيب ظنكِ أحدهم، لكن لا تخيّبي ظنكِ بنفسكِ فقط لأجل أن تُرضيهم.

حدّدي: هل ما تفعلينه نابع من حب؟ أم من خوف الرفض؟»

5. الأمومة والهوية:

- «أن تكوني أمًا لا يعني أن تذوبي وتختفي.

أولادكِ لا يحتاجون أما خارقة... بل امرأة تُحب نفسها كي تُحبهم صحّ.

كوني قدوة في الرحمة، لا في التنازل. في القوة، لا في الإنكار.»

تتوقَّف المعالجة وتنظر إليهنّ:

- أنا لا أطلب منكنَّ الكمال، فقط أطلب من كلّ واحدة أن تضع يدها على قلبها الآن، وتهمس: أنا أستحق أن أكون بخير، فكلّ خطوة باتّجاه نفسكِ، هي خطوة باتجاه النور.

لحظة صمت خاشعة تمرّ بينهنَّ، كأن أرواحهنّ تُصغي أكثر من آذانهن، وكانت هذه لحظة وعي لا تُنسى.

ابتسمت المعالجة، ووقفت أمامهن، بصوت دافئ، مليء بالحنان، قالت:

- هل تدرين يا قمر... حين بدأتِ معنا كنتِ تضعين كلّ العالم قبل نفسك، كنتِ تخافين أن تفقدي ما تملكين حتى فقدتِ ذاتك... وها أنتِ اليوم، تنظرين إلى ندبتك كوسام لا كوصمة، كحكاية نجاة، لا كذكرى ألم.

ثمَّ نظرت إلى نور:

وأنتِ يا نور... كنتِ تحاولين ترميم جدران صداقات تهدمت من طرف واحد، كنتِ تظنّين أنَّ الخذلان نهاية الضوء، لكنكِ الآن أنتِ الضوء.

ثُمَّ التفتت إلى زهرة:

- وأنتِ... حملتِ فكرة الزَّواج على ظهركِ كمن يحمل خلاصه، ثُمَّ وقع الحمل، وتبعثر الحلم، لكنَّكِ لم تقعي أنتِ، كنتِ تظنّين أنَّ الطَّلاق هزيمة، فإذا به بداية انتصارك.

سكتت لحظة، ثُمَّ أكملت بصوت هادئ فيه قوّة:

- الآن، وبعد هذه الرحلة معًا، أريد أن أخبركن شيئًا هامًّا، أنتنَّ لستنَّ بحاجة إليّ بعد الآن، لستنَّ بحاجة لمركز دعم نفسي، لأنكنَّ بتنَ أنتن الدَّعم لأنفسكنَّ... هذا الطَّريق الذي سلكتموه في الداخل، هو الذي سيقودكن في الخارج، اتّبعن قلوبكن، ولكن لا تنسين أن تصغين لعقولكن أيضًا، لا تسألن الناس عن قيمتكنَّ، فهي مزروعة فيكن منذ وُلدتن... لا تسألنهم كيف يُحبونكنَّ، بل أحببن أنفسكن كما تستحقّ.

ثُمَّ اقتربت منهنَّ وقالت بابتسامة:

- اذهبن الآن، لا للهرب، بل للبدء... ابدأن من جديد، لا كمن يبحث عن خلاص، بل كمن قرّر أن يعيش.

في تلك اللحظة خيّم الصَّمت، لكنّه كان صمتًا مليئًا بالسلام.

شعرت كلّ واحدة منهنَّ وكأنَّ شيئًا ما استقرَّ أخيرًا في صدرها، شيئًا يشبه الأمان.

ساحة صغيرة أمام مركز «صَوْت»، تشرق فيها شمس ربيعية دافئة، والسماء صافية كأنها تبشّر ببداية جديدة. تخرج قمر، نور، وزهرة من بوابة المركز بخطى هادئة، تتوقف كل واحدة منهن قليلًا، تتنفس، كأنها تستنشق الحياة لأول مرة.

قمر، تمسك بوشاحها بيدها اليمنى، تضع يدها الأخرى على رقبتها حيث الندبة القديمة، تنظر إلى المرآة في حقيبتها وتبتسم: «هذه أنا... كما أنا... وكم أحبّني الآن.»

نور، تنظر إلى السَّماء، ثُمَّ تخرج من حقيبتها مفتاحًا صغيرًا، مفتاح المرسم القديم، تتأملّه قليلًا، ثُمَّ ترفعه نحو الضوء، كأنها تودّعه: «سأرسم من جديد، لا من أجل الآخرين، بل لأني أستحق أن أرى النور في لوحاتي، لا ظلالهم.»

زهرة، تسحب وشاحها قليلاً، وتخرج ورقة مطوية كانت في جيبها — نسخة من وثيقة الطلاق... تمعن النظر فيها لحظة، ثُمَّ تطويها مجدَّدًا وتضعها في محفظتها، ليس كنهاية، بل كتذكرة لطريق سلكته ونجت منه: «أنا لستُ نصفًا يبحث عن تكامل... أنا كاملة... كفجرٍ خرج من ظلمةٍ طويلة.»

ثُمَّ تنظر الثلاثة إلى بعضهن البعض... عيونهن مليئة بفهم جديد، صداقة لم تولد من ماضي مشترك، بل من ألم مشترك، وشفاء مشترك.

تضحك نور فجأة وتقول:

- ماذا عن قهوة؟ بداية جديدة تحتاج إلى قهوة.

تضحك قمر:

- وقليل من حلوى النجاح.

تهمس زهرة:

- وأحاديث نخبِّئ فيها ما تبقّى من الدُّموع.

تمضين معًا... لا كمن يهرب، بل كمن عاد إلى نفسه بعد غياب طويل.

من خلفهن، تلوح لافتة صغيرة: «مركز صَوْت» — لم يعد مجرد مكان... بل بداية.

بعد شهر من ختام الجلسة الثالثة.

قمر.

في صباحٍ شتويٍّ ناعم، كانت قمر تمسك كوب قهوتها وتجلس على الشرفة، تراقب صغيريها وهما يلعبان في الحديقة.

الثلج لم يتساقط، لكنه كان في قلبها ذائبًا كما ذاب الخوف الذي طالما قيدها.

لم تعد تبكي خفية إذا نظرت إلى المرأة في المرآة، بل صارت تقف أمامها وتقول:

«أنا هنا... بكِ، ومن أجلك، سأبدأ من جديد.»

عادت إلى عملها تدريجيًا، درست عن بُعد، قرأت كثيرًا، وبدأت تكتب.

كلّ ما عاشته صار بذورًا صغيرة غرستها لتُثمر شيئًا منها... فقط منها.

ذات مساء، فاجأها عمر بباقة ورد وابتسامة عريضة، وقال وهو يناولها صندوقًا صغيرًا:

«إلى المرأة التي علّمتني الصبر، والإيمان، وقوة البقاء... هذا أقلّ ما تستحقينه.»

فتحت الصُّندوق...

كان داخله عقد صغير يتوسَّطه حجر منقوش عليه كلمة «قمر».

ابتسمت، وبكامل امتنانها أجابته بصوتٍ خافت:

«وجدت النور حين عُدت إليّ.»

نور.

كانت تقف أمام باب جديد... باب لم يكن لمعرض فن، ولا لمقهى تُزيّنه لوحاتها، بل كان باب مساحة صغيرة حوّلتها بيديها إلى مرسم يشبه روحها.

لم يكن المشروع كبيرًا، لكنه كان صادقًا، ملوّنًا، نقيًّا من الخذلان.

علّقت على الحائط لوحة جديدة رسمتها بعد جلساتها... امرأة تمشي بثوب أبيض في غابة مظلمة، وبيدها فانوس يشع نورًا من داخلها.

في زوايا المكان، وُجد ركن خاص اسمه «لمن انهارت... فقامت»، تُعرض فيه لوحاتها الأشد وجعًا، كتبت تحت كل واحدة تاريخ رسمها وتاريخ تعافيها.
كانت تدير الورشات بنفسها، وتعطي دروسًا للفتيات الصغيرات،
وحين تُسأل: كيف بدأتِ؟
تبتسم وتقول:
«حين اختارتني الحياة درسًا، قررت أن أكون فنانة لا ناجية فقط.»
أما المرسم القديم الذي خذلتها فيه ألاء؟
فلم تعد تذكره إلَّا لتتذكّر أن بعض الخسارات كانت إنقاذًا.
زهراء.
جلست في مقهى صغير، تُقلّب صفحات دفتر أنيق نُقش عليه: رحلتي إليّ.
تحتسي قهوتها بهدوء، ووجهها لا يشبه تلك المرأة التي خرجت يومًا من قاعة المحكمة مكسورة، بل يشبه امرأة خاضت حربًا مع ذاتها، وربحت.
لم تعد تُجيد تبرير الألم، بل صارت تُجيد تحويله إلى وعي.
تعمل الآن مستشارة دعم للنساء اللواتي مررن بتجربة الطَّلاق، تحدّثهن من قلبها، لا من كتاب، وتقول دائمًا في بداية كل ورشة:
«أنا لم أُشفَ من التجربة، بل من فكرتي عن نفسي داخلها.»
زهراء أصبحت صوتًا للنساء الصامتات، ويدًا تُربّت على الكتف وتقول:
«أنتِ لستِ أقل، أنتِ أقدر.»
وكلما عادت من عملها، ووضعت رأسها على الوسادة، تعرف أنها ليست وحيدة، فهي أخيرًا احتضنت نفسها كما تستحق.

بعد عامين

صباح في مقهى دافئ يطل على المدينة.

في الزاوية المعتادة من المقهى، جلست ثلاث نساء، يحيط بهن دفء غير مرئي، دفء سنوات من الشفاء، من الترميم، من النهوض رغم الانكسارات. قمر كانت تُمسك حاسوبها المحمول، عيناها لامعتان وقد ظهرت أولى سطور «الفصل الأخير» في روايتها الجديدة:

حين عُدتُ إليّ... العنوان الذي اختارته من قلبها، من قصتها، من رحلتها.

همست وهي تطبع الكلمة الأخيرة:

«انتهيت... أخيرًا، انتهيت.»

نور تصفق لها بحرارة، تمسك يدها وتقول:

- وأنتِ لا تعلمين كم من الأرواح ستوقظينها بهذه الصفحات.

كانت نور ترتدي قميصًا أبيض اللّون ملطّخًا ببقع ألوان زهرية وزرقاء، فهي جاءت مباشرة من مرسمها الكبير الذي أصبح قبلة لعشاق الفن والحرية. فنانة، مديرة، وامرأة تعرف تمامًا كيف تملأ اللوحة بصدقها لا بفرشاتها فقط.

زهراء تحتسي قهوتها، تضع على الطاولة أوراقًا تحمل شعار جمعيتها الجديدة: «صوتُكِ حقّكِ» - جمعية للدفاع عن حقوق النساء المطلقات والناجيات من العنف الأسري.

كانت تضحك وتقول:

«أتعلمان؟ نحن لم نكن مكسورات، نحن فقط كنا بحاجة لأن نُرى كما نحن.»

تهمس قمر مبتسمة:

- ولأن نُحب كما نحن.

نور:

«ولأن نُصدق أن ما فقدناه لم يكن نحن، بل فقط وهم ظننا أننا نحتاجه.»

جلسنَ هناك طويلًا... لا استعجال، لا قلق، لا ألم.

فقط ثلاث نساء جمعهنَّ الألم، وقرّبهن الأمل،

وها هنَّ الآن، أقرب من أيّ وقت مضى، أقوى من كلّ ما كُسر فيهنَّ،

وأصدق من أيّ حلمٍ كتبنه في صمتهنّ ذات يوم.

وفي عيون كلّ واحدة، تُكتب رواية، تُرسم لوحة، وتُزرع بذرة حياة جديدة.

تمَّت بحمد الله

الخاتمة

في اللَّحظة التي ظننتُ أنني وصلتُ إلى النهاية، بدأت الحياة تُفصح لي عن بداياتها الحقيقية.

لم أعد أرى نفسي في أعين الآخرين، بل في عينيّ أنا... في انعكاسٍ صادق لم أعتده من قبل. أدركتُ أنني لستُ ما ينتظره الناس مني، ولستُ الصوت الذي يُملي عليَّ كيف أعيش. أنا ببساطة: أنا.

لم تكن الأدوار التي تقمصتُها عبثاً، بل كانت طريقاً وعراً قادني إلى هذا الإدراك. في كل هزيمة، كانت هناك بذرة وعي. في كل فقد، كانت هناك نواة ولادة جديدة. كنتُ أهرب من الفراغ بداخلي، والآن، أحتضنه. أسكنه. أزهر فيه.

من أنا؟

أنا التي تعثّرت، فنهضت.

أنا التي هُزمت، فتعلمت.

أنا التي ظنّت أن الحب خارجي، فاكتشفته في ذاتها.

اليوم، لا أبحث عن شخصٍ في خيالي.

بل أتعرف على نفسي، وجهاً لوجه، في كل خطوة، في كل خيارٍ لا يُرضي أحدًا سواي.

أما عن الأصوات... فقد سكتت.

والصوت الوحيد الذي أسمعه الآن، هو صوت قلبي،

وهو يقول بثقة:

«ها أنتِ ذا. قد وصلتِ.»

كلُّ واحدةٍ منّا كانت تحمل ندبة، مرآةً مشروخة، وقلباً مُثقلًا بأسئلة لم تجد لها جواباً.

كُنّا نظن أن الحياة تتشكل من الخارج، من الأسماء، من العلاقات، من رضا الآخرين عنا.

ولكننا تعلمنا... أن الحياة تبدأ من الداخل.

تعلمنا أن الجُرح لا يُخفى، بل يُحتضن.

أن الخوف لا يُدفن، بل يُفهم.

وأن الحب، ذاك الذي بحثنا عنه في كل الزوايا، لا يُعطى قبل أن نمنحه لأنفسنا.

لم نُشفَ تمامًا، ولن ندّعي ذلك.

لكننا بتنا نعرف الطريق.

نُميّز أصواتنا وسط ضجيج العالم.

ونسير.

نسير لا بثقة مفرطة، بل بيقين هادئ: أن في كل تعثّر، فرصة.

وفي كل سقوط، بذرة قيامة.

رسائل إلى ذاتي

إلى تلك التي صمدت كثيراً ولم تُصفّق لها الأقدار...
إلى التي وقفت في عتمتها، تمسح دموعها بصمت، وتنهض كل مرة رغم أن الانكسار لم يرحمها...
إليكِ أكتب.

***

يا أنا...
ما عدتُ ألومك على ما شعرتِ به ذات وجع، ولا أعاتبك على تلك الليالي التي بكيتِ فيها دون صوت.
ما عدتُ أنجل من هشاشتكِ، بل أحتضنها... وأقبّل تلك الشقوق التي تركها الزمن في روحك.

***

سامحتكِ...
على كل المرات التي صمتِّ فيها كي لا تُزعجي أحداً،
وعلى كل اللحظات التي وضعتِ فيها راحتهم فوق راحة قلبك.
سامحتكِ لأنكِ كنتِ تحاولين النجاة، بطريقتك.

أعدكِ...
أن لا أكون قاسية عليكِ بعد اليوم،
أن أستمع إليكِ في الزحام،
أن أصدّق حزنكِ ولو ابتسمتِ،
أن أحتفل بكِ ولو سقطتِ،
لأنكِ تستحقين كل شيء جميل... فقط لأنكِ أنتِ.

***

هذه رسالتي إليكِ، يا ذاتي:
لن أترك يدكِ، مهما حدث.
سنكمل الطريق معًا... بقوة، بلطف، بحب.

أسئلة للتفكّر

1. ما هو الجرح الذي أحمله في داخلي ولم أواجهه بعد؟
2. هل أحب ذاتي كما هي، أم أنني أبحث عن قبولي في أعين الآخرين؟
3. ما أكثر شيء يُخيفني في الحياة؟ وهل هذا الخوف حقيقي أم وهم صنعه عقلي؟
4. كم مرة تجاهلت صوتي الداخلي فقط لأُرضي الآخرين؟
5. متى كانت آخر مرة سامحت فيها نفسي حقًا؟
6. هل أعيش كما أريد... أم كما يُتوقع مني؟
7. ما العلاقة التي تستنزفني؟ ولماذا أتمسك بها؟
8. هل أحتوي نفسي عندما تنكسر، أم أنتظر من يحتويها عني؟
9. إن كنتُ سأبدأ من جديد، ماذا سأُبقي وماذا سأترك؟
10. ما هو «النداء» العميق في داخلي الذي أسكته كل يوم؟
11. كيف يبدو شكلي حين أكون أنا... بلا أقنعة؟
12. ما هو الحلم الذي أجلته خوفًا من الفشل؟
13. ما الذي يجعلني أشعر بالأمان؟ وهل هذا الأمان داخلي أم خارجي؟
14. إن قابلت نفسي في المرآة، ماذا سأقول لها الآن؟
15. هل آن الأوان لأعود إليّ... حقًا؟

«هذه الرواية لم تُكتب لتخبرك عن قمر ونور وزهراء فقط، بل كُتبت لتلامسك، لتضع أمامك مرآة الذات...

فإذا انتهيت من القراءة، لا تُغلق الكتاب قبل أن تفتح صفحاتك الداخلية... اجلس مع نفسك، واجب عن هذه الأسئلة بصدق، بعمق، وكأنك تنقذ قلباً من الغرق... قلبك.»

عن الكاتبة

خوجة زينب

كاتبة جزائرية تحمل بين سطورها شغفًا عميقًا بالنفس البشرية، وهمومها، وأحلامها المؤجلة. تؤمن أن الحرف دواء، وأن الكتابة ليست مجرد كلمات، بل بوح يرمم، ويوقظ، ويحرر.

انطلقت في مسيرتها الأدبية من رغبة صادقة في أن تكون صوتًا لكل من خذله الواقع، وملجأً لكل من يبحث عن ذاته.

في روايتها الأولى «حين عُدتُ إليّ»، نسجت خيوط الأمل من وجع التجربة، وجعلت من الألم جسرًا نحو النور، لتهمس في أذن القارئ: ربما تعثّرت، لكنك لم تفقد الطريق بعد.